رواية

جاك لندن

قبل آدم

فريق متميزون
E-BOOK

الطبعة الثانية

ترجمة
رغد قاسم

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قبل أدم

رواية مترجمة..

الكاتب: جاك لندن.

ترجمة: رغد قاسم

عن الرواية..

رواية عن صبيّ صغير يعيش زمنين مختلفين في آن واحد، فهو يحيا في مدينة أميركية في القرن العشرين لكنه في عالمه الجوانيّ "وهو عالم لا يقلّ حقيقية عن العالم الخارجيّ" يعيش قبل ملايين السنين، بالضبط في الفترة التي كان جنسنا فيها مرحلة انتقالية بين القرد والكائن البشريّ كما نعرفه اليوم.

تتدرج في هذه الرواية خبرات جاك لندن العميقة في معرفة الحيوان والإنسان معاً، ففي كثير من أعماله كان كاشفاً عن الحيوانيّ في الإنسان أو بالعكس عما هو إنسانيّ في الحيوان، كما تتدرج فيها الكشوفات العلمية بدءاً من نظرية التطوّر الداروينية وانتهاء بكشوفات يونغ عما تكشفه الأحلام من تجارب موغلة في القدم.

حياة أسلافنا من البشر ـ الحيوانات، يسردها بطل الرواية الصغير هنا على مستمعيه من دون أن يصدقه أحد. لكنّ من يقرأ الرواية لا يملك إلا أن يؤمن بأن وراء هذا السرد عبقرية وكشفاً عن كنز إنسانيّ ظلّ مطموراً لوقت طويل.

رغد قاسم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن جاك لندن (المؤلف)..

يُعد الكاتب الأمريكي جاك لندن (1876 – 1916) المؤسس الأول للجنس الروائي المعروف اليوم بِمسمى «الخيال العلمي»، وهو واحد من أوائل الكتاب الذين تمكنوا من إحراز ثروة كبيرة من الكتابة وحدها.

ولد جاك لندن (اسمه الحقيقي: جون غريفينث تشاني) في ظروف صعبة، فقد رفض والده الاعتراف بهِ من قبل أن يولد، مما أدى بوالدته إلى أن تسعى للاجهاض، وعندما لم تنجح في ذلك حاولتْ الانتحار، غير أنّ مساعيها بائت بالفشل مرة أخرى، فتركت الطفل تعيس الحظ لترعاه فيرجينيا برينتس وهي مربية أمريكية من أصل أفريقي، وقد خلفت هذهِ المرأة في نفس لندن أثرًا بالغًا واعتبرها أمّه الحقيقية، بقي على صلته الطيبة بها حتى بعد عودته لوالدته وزوجها الجديد: جون لندن، الذي حمل جاك لقبه، بعد تغيير اسمه من جون إلى جاك للتمييز بينهما.

عاش لندن حياة خصبة بالمغامرات، وقد قاسى في أوائل شبابه من الفقر والفاقة حتى أنه سُجن بتهمة التشرد، جرب الكثير من الأعمال في حياته؛ منها التنقيب عن الذهب، وعمل في مناجم الفحم، وفي السيرك، كما اشتغل حمالًا، وبحارًا، وصحفيًا وقاطع طرق وغيرها الكثير. هذهِ الحياة الغنية بالأحداث تركت بصمتها في كتابات لندن، فقد دافع طويلًا عن العمال المضطهدين وكان نصيرًا لهم، كوّنت سنوات الشقاء الأولى تلك وعيه العميق باللاعدالة المخيفة وهي تنخر أساسات المجتمع بفعل الطبقية المقيتة، إذ عدّ الحياة بمثابة صراع بين قوى الخير والشر؛ أيّ الفقراء والأغنياء من وجهة نظره. وكان يرى أن الكتابة هي وسيلته لمحاربة اولئك الأغنياء المحتكرين للثروات. كان ناشطًا لحقوق العمال واشتراكيًا متحمسًا ومدافعًا عن حقوق الحيوان، وإن كان يحسب عليه كونه من مناصري تحسين النسل الذي كان أمرًا شائعًا في الأوساط الأوربية النخبوية، إذ لم يجد عيبًا في المطالبة بالتعقيم الإجباري للمجرمين وضعيفي العقل.

لكن لتلك الحياة مساوئها للأسف؛ فقد أورثته العديد من الأمراض الناجمة عن سوء التغذية منها داء الأسقربوط، كما ورث عادة القمار والإفراط في الشرب مما قضى عليه في النهاية، فتوفي وهو في أوج نشاطه الأدبي بسبب الفشل الكلوي، وإن كان هناك من يعتقد أن لندن قد أنهى حياته بنفسه بجرعة عالية من المورفين.

ثقفَ جاك نفسه بنفسه، بمساعدة أمينة المكتبة إينا كولبريث، التي كانت أول امرأة تتوجها ولاية كاليفورنيا بشكل رسمي بلقب «شاعرة الدولة»، آمنت كولبريث بموهبته وكانت من المشجعين له. فبدأ يدرس بحماس بعد أوقات العمل، في بار بجانب الميناء في مدينة اوكلاند، وقد استطاع البدء بالدراسة في جامعة كاليفورنيا بالفعل وهو في الحادية والعشرين من عمره، لكن تكاليف الدراسة كانت عبئًا ثقيلًا، كما أن الحادثة التي وقعت في تلك الفترة، أصابته بصدمة نفسية عميقة؛ فقد بدأ بمراسلة والده (وليام تشاني) عسى أن يجد جوابًا شافيًا عن السبب في تخليه عنه، فكان رده بأنه ليس أبًا لأحد لكونهِ عنينًا، أما هو فقد ولد سِفاحًا. دمرت هذهِ الرسالة حياته، فترك الدراسة، ورحل إلى كندا لينضم لحمى تنقيب الذهب في كلوندك.

كتب لندن القصة القصيرة، والروايات، والشعر، والمسرح، والمقالات، وثلاثة كتب في السيرة الذاتية .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة الترجمة العربية

ترجمة جاك لندن مثل قرائته مغامرة ممتعة، إذ تُمكنك من التوغل في عقل فذ وخيال جامح. ورواية قبل آدم بالذات شاهد على عبقرية الرجل وحدة ذكائه وتمكنه من فنه. يكاد يكون من الصعب التقديم لعمل مثل هذا العمل دون المجازفة بكشف شيء من تفاصيله، وهي الرواية التي تعتمد أساسًا على قدرتها في إثارة فضول القارى لإكمالها.

كتب لندن الرواية ونشرها في العام 1907، بعد سنة واحدة من نشره روايته الشهيرة (الناب الأبيض)، وهي الرواية الأولى في كتاباته التي اعتمد فيها على الخيال العلمي البحت، لذا فرواية (قبل آدم) تُعد واحدة من الروايات الأولى في هذا المجال، وإن لم تكن الأولى على الإطلاق، فقد سبقتها إلى تلك المرتبة رائعة ماري شيلي (فرانكشتاين). كتبت الرواية في الفترة التي صار فيها لندن واحدًا من مشاهير الكتاب، وقد حصد ثروة انتشلته من فقره السابق، وقام بنشرها بهيئة سلسلة في المجلات.

الرواية مثال صريح على أفكار لندن ومعتقداته، فهي قصة عن الأيام الأولى لتطور الإنسان، وهي محاولة فكرية جريئة للجواب على أسئلة أنثربولوجية، كان النقاش ولا يزال محتدمًا بشأنها.

يحمل السرد في طياته رؤية سايكلوجية مثيرة للإهتمام في موضوع الأحلام، يطرح لندن الفرضية التالية: ما دمنا نحلم بالسقوط على الأرض دائمًا، وهو حلم يتشاركه العديد من الناس، إن لم يكن جميعهم. ويفسر العلماء هذا الحلم على أنه بقية من إرثنا التطوري من أسلافنا الذين عاشوا على الأشجار، لأن السقوط من أعلى شجرة كان مرادفًا للموت في حينها، فقد ظل السقوط رعبًا اختبره أجدادنا طوال حياتهم، حتى انطبع في أدمغتهم وأدمغة أجنتهم من بعدهم، إلى أن وصل إلى الإنسان الحديث اليوم. فماذا سيحدث إذن لو أفترضنا جدلًا أن من بين ملايين البشر الذين يعيشون على البسيطة ثمة شخص واحد، واحد فقط، وصل إليه ما هو أكثر من حلم السقوط؟ ماذا لو ولد وفي دماغه ذاكرة كاملة من ذلك العصر؟ لن أجيبك عن السؤال، لكن لندن سيفعل بلا شك!

رغد قاسم

2019

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقديم

«إنهم أسلافنا، وتاريخهم تاريخنا.. «فليكن ذلك في حسابك، مثلما هو أكيد أننا تركنا الأشجار يوماً ما وَوقفنا منتصبين، لا بد أننا في يوم أقدم من ذلك، زحفنا خارج البحر، لنبدأ مغامرتنا الأولى على الأرض»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

صور! صور! صور!

قبل أن أعرف، كنت كثيراً ما استغرب، أنّى لي بحشد الصور هذا الذي تزخر به أحلامي؟ فقد كانت تلك صوراً لم أرَ ما يماثلها قط في حياة اليقظة الواقعية في النهار. طفولتي عذبتها تلك الصور، إذ صيرت أحلامي موكباً من الكوابيس، حتى اقتنعتُ بعدها أنني كنتُ من نوع مختلف، مخلوقاً غير طبيعي، وملعوناَ.

ما نلت إيما قدر من السعادة إلا في النهارات وحدها، أما الليالي فقد حُكم عليها الخوف، وياله من خوف! أنا أجرؤ على التصريح بإن ما من إنسان، من بين كل البشر الذين ساروا معي على هذهِ الأرض قد عانى من خوف مثل خوفي، لا من حيث نوعه ولا درجته. إذ إن خوفي، إنما هو خوف عتيق، ذلك الخوف الذي كان متفشياً في العالم الأول، في طفولة العالم الأول وشبابه. أنه بِاختصار ذلك الخوف الذي هيمن على الفترة المعروفة بمنتصف العصر الجليدي([1]).

ماذا أعني؟ أرى أن التفسير ضروري قبل أن أستطيع إخبارك عن مادة أحلامي. وإلا، فما أقل ما بوسعك معرفته عن معنى الأشياء التي أعرفها أنا حُسنَ المعرفة، إذ أكتبُ، وكل كائنات واحداث ذلك العالم يرتفع عنها الستار أمامي في مسرح أشباح هائل([2])، وأعرف أن ذلك كله سيبدو بالنسبة لك مفتقراً للتوازن والمنطق.

فماذا قد تعني لكَ صداقة مسترخي الأذن، أو الإغواء الدافئ للسريعة أو شهوة العين الحمراء والتردي إلى الأصل؟ تفكك صارخ للمعنى ولا شيء غير ذلك. تفكك صارخ مماثل تستشعره في حديثي عن أفعال قوم النار وقوم الأشجار، ومجالس هذر القوم. فأنت لا تعرف السلام الذي تبتعثه الكهوف الباردة عند المنحدرات الصخرية، ولا الهرج عند أماكن الشرب في نهاية اليوم. أنّك لم تشعر قط بلسعة ريح الصباح عند قمم الأشجار، ولم تذق حلاوة اللحاء النضر في فمك.

أجرؤ على القول إنه سيكون من الأفضل لكَ، أن تجدَ سبيلك الخاص للتعامل مع ذلك، مثلما وجدتُ أنا سبيلي عبر طفولتي. كصبي كنتُ لا أفرق عن أي صبي آخر في ساعات يقظتي. إلا في منامي، إذ ذاك أكون مختلفاً. منذ أبعد ذكرياتي وأقدمها وعهدي بالنوم هو عهدي بكل ما يوقع الرعب في النفس. نادراً ما اصطبغت أحلامي بالسعادة. فقد كانت القاعدة أن تكون أحلامي محتقنة بخوف هو غاية في الغرابة والتفرد، خوف يتعذر الوصف عن توضيح طبيعته. ما من خوف شعرت بهِ في حياة اليقظة يعادل الخوف الذي قاسيته في نومي. لقد كان خوفاً يتجاوز في نوعه وصفته كل تجاربي.

كنتُ وعلى سبيل المثال، صبيَّ مدينة، أو بالأحرى طفل مدينة، ممن يُعتبر الريف بعيداً عن نطاق معرفته. ورغم ذاك لم أحلم بالمدن أبداً، ولم أرَ منزلاً في إيما حلم من أحلامي. بل ما من كائن بشري أخترق جدار نومي. وأنا الذي ما رأيتُ الأشجار إلا في المتنزهات والكتب المصورة، تجولت في أحلامي عبر غابات بلا نهاية. بل ثمة ما هو أكثر من ذلك، إذ لمْ تكن أشجار الأحلام هذهِ محض صورة ضبابية في نظري، كانت واضحة ومميزة. ولقد كنتُ بمعنى ما خبيراً خبرة خاصة في معرفتها. رأيت كل فرع وكل غصن؛ ورأيت وعرفت كل ورقة على اختلافها.

أتذكر بشكل جليّ المرة الأولى التي رأيت فيها شجرة بلوط في يقظتي. ما إن نظرت إلى الأوراق والأغصان والعقد، حتى شعرت وبحيوية حزينة أنني قد رأيت هذا النوع ذاته من الأشجار مرات لا تُحصى في نومي. لذلك لم تصبني الدهشة سابقاً، ولن تصيبني في حياتي القادمة كلما تعرفتُ وعلى الفور على أشجار أراها للمرة الأولى، مثل شجرة التنوب، السدر الجبلي، أشجار البتولا وشجر الغار. لقد رأيتها كلها من قبل، لقد كنتُ أراها كل ليلة في نومي.

وهذا، كما لا بد أنّ تكون قد تفطنتَ بنفسكَ سلفاً، يخرق أول قانون معروف للأحلام، وأعني بذلك أن المرء لا يرى في أحلامه إلا ما قد رآه في صحوه، أو مزيجاً مما أبصره في حياة الصحو تلك. لكن أحلامي بمجملها انتهكت هذا القانون. لمْ أر في أحلامي أي شيء خبرته في ساعات صحوي. إن حياتي في الحلم وحياتي في الصحو كانتا منفصلتين، بلا أي شيء مشترك سواي. كنتُ حلقة الوصل بين حياتين أحيا كلاهما بشكل ما.

في طفولتي عرفت أننا نشتري المكسرات من المتجر، والتوت من بائع الفواكه؛ إلا أنني وَمن قبل حيازتي على تلك المعرفة بزمن طويل، كنتُ قد التقطت المكسرات من الأشجار، أو جمعتها من على الأرض تحت الأشجار وأكلتها، وبالطريقة ذاتها أكلت التوت من عند الكروم والشجيرات، وقد كان هذا يتجاوز أي خبرة لي في حياتي.

ولن أنسى أبداً المرة الأولى التي شاهدت فيها توتاً أزرقَ على المائدة. لم أكن قد رأيت التوت الأزرق من قبل، إلا أنني عند مرآه وثبتْ إلى ذهني فجأة مجموعة من ذكرياتي الحلمية عندما همت في أراض سبخة وأكلت كفايتي منه. وضعت لي أمي طبقاً من التوت أمامي، أخذتُ منه ملءَ ملعقة، ولكن حتى قبل أن أرفع الملعقة إلى فمي، كنتُ أعرف كيف سيكون طعمها. ولم يخب ظني، لقد كانت له النكهة القوية ذاتها التي تذوقتها الآف المرات في نومي.

الثعابين؟ قبل وقت طويل من سماعي بوجودها حتى، كانت الثعابين قد عذبتني في مناماتي. لقد تربصت لي في شقوق الغابات؛ تقفز فجأة، تلدغ، ومن تحت قدميّ أراها تنطلق وهي تتلوى بعيداً بين الأعشاب الجافة أو على بقع من الصخور العارية؛ أو تلاحقني حتى قمم الأشجار، مطوقة الجذوع بأجسادها الهائلة الملتمعة، لتدفعني أعلى فأعلى أو أبعد فأبعد حتى أصل إلى الأفرع المتمايلة والضعيفة المتكسرة، اما الأرض تحتي بيني وبينها مسافة كبيرة تبعث فيّ الدوار. الثعابين! بألسنتها المشطورة، وأعينها الخرزية اللامعة وحراشفها المتلألئة. هسيسها وفحيحها ــ ألم تكن لي معرفة أكثر من كافية بها، في اليوم الذي زرت فيه السيرك لأول مرة ورأيت ساحر الثعابين يرفعهن إلى أعلى؟

لقد كانت الثعابين أصدقائي القدامى، أو أعدائي بالأحرى، أعدائي الذين وطنوا الخوف في ليالي حياتي.

آه منها تلك الغابات اللامتناهية، وكآبتها المسكونة بالرعب! كم من أبدية همتُ علي وجهي فيها، مخلوع الفؤاد من فرط الذعر، مطارداً، يُفزعني أدنى صوت، خائفاً من خيالي، منفعلاً، في حالة من تأهب ويقظة دائمة، جاهزاً في أيّة لحظة للانطلاق بعيداً في فرار جنوني للنجاة بحياتي. فقد كنت أنا الفريسة لكل أشكال الوحوش التي

تستوطن الغابات، تغمرني نشوة من الخوف كلما فررت من وجه وحش يريد اصطيادي.

عندما بلغت الخامسة من عمري زرتُ السيرك للمرة الأولى. وعدتُ منه إلى البيت مريضاً، لكن مرضي لم يكن من أكل الفول أو شراب الليمون الوردي اللون. دعني أُخبرك بالأمر، إذْ بينما كنا ندخل خيمة الحيوانات، هزّ الهواءَ صوتُ زئير أجش. أفلتُ يدي من يد أبي بقوة وتراجعت مُسرعاً إلى المدخل، تعثرت بالناس وسقطت على الأرض، كنتُ أصرخ طوال الوقت من فرط الذعر.

أمسكني أبي وقام بتهدئتي، أشار إلى حشد الناس غير المكترث للزئير، وطيب خاطري بضمانه للأمان.

ورغم ذلك بقيتُ خائفاً وأرتجف، وبتشجيع كبير من أبي، أستطعت أخيراً أن اقترب من قفص الأسد. آه، عرفته على الفور. الوحش، الوحش المريع! وقد أومضت بصيرتي الداخلية بذكريات من أحلامي ـ شمس منتصف النهار تلتمع على العشب الطويل، ثور بري يرعى بهدوء، وانفراج مفاجئ للأعشاب أمام الاندفاع السريع للنحاسي اللون، قفزته المباغتة على ظهر الثور، الانهيار والخوار، والطق، طق، طقطقة سحق العظام. أو في مرة أخرى، حيث الهدوء البارد لبركة ماء يغطس فيها حصان بري حتى ركبتيه ليشرب ناعم البال، ثم يظهر النحاسيّ ـ دائماً هذا النحاسيّ اللون! ـ القفزة، الصراخ، رشاش الماء، ثم طقطقة سحق العظام؛ وفي مرة أخرى، الشفق الكئيب والصمت الحزين المعتاد عند انقضاء اليوم، ثم زئير هائل ينطلق بملء الحنجرة، صوت مفاجئ ومرعب، مثل نفخ الصور في يوم الدينونة، لتنطلق أثرها وبسرعة صرخات الذعر والاصطكاك بين الأشجار، أنا أيضاً أرتجف بخوف، واحد من كثيرين يصرخون مذعورين ومصطكين من الخوف بين الأشجار.

عند مرآه عاجزاً، بين قضبان قفصه، انطلقت بحنق، صررت على أسناني له، تقافزتُ راقصاً أمامه صعوداً ونزولاً، بصيحات سخرية لا ربط بينها، مظهراً له العداء في ملامحي. فأستجاب لي وهرع باتجاه القضبان، وزأر في وجهي بغضبه الذي بلا فائدة. آه، لقد عرفني هو أيضاً، والأصوات التي أطلقتها من أصوات الزمن القديم، كانت مفهومة لديه.

فزعَ والديّ؛ «الولد سقيم» قالت أمي، «أنه مصاب بهيستريا» قال والدي.

لم أخبرهم بشيء قط، ولم يعرفوا شيئاً أبداً. لقد طورت مسبقاً تحفظاً على خصلتي هذهِ، شخصيتي شبه المنفصمة كما أظن أنني منصف في تسميتها.

رأيتُ ساحر الثعابين ولم أر من السيرك ما هو أكثر منه تلك الليلة، تم نقلي بعدها إلى البيت في حالة من الهياج والتوتر، سقيماً من هذا الغزو الذي تتعرض له حياتي الواقعية من قبل الحياة الأخرى في أحلامي.

كنتُ متحفظاً كما ذكرت، إلا أنني وفي مرة واحدة فقط أفضيت بغرابة هذا الأمر كله إلى شخص آخر، لقد كان صبياً ـ صديقي؛ وقد كنا في الثامنة من العمر، ومن أحلامي استعدت له صوراً من ذلك العالم المتلاشي، الذي أؤمن أنني عشت فيه

مرة. أخبرته عن أهوال الزمان الأول، عن مسترخي الأذن والمقالب التي قمنا بها، عن مجالس الهذر، وقوم النار ومكان إقامتهم.

ضحك مني ملء فمه، وتهكم عليّ، وقص عليّ حكايات عن الأشباح، والموتى الذين يمشون في الليالي، إلا أن أكثر ما أضحكه كان ضعف مخيلتي. أخبرته بالمزيد فتعالت ضحكاته أكثر فأكثر. أقسمتُ له بكل جدية أن هذهِ الأشياء قد حدثت بالفعل، فنظر إليّ مرتاباً، ثم حور حكاياتي صانعاً منها كوميديا عجيبة تلاها على مسامع رفاق لهونا، فبدأ الجميع يرمقوني بالنظرة المرتابة ذاتها.

لقد كانت تجربة مرة، تعلمت منها درسي. عرفتُ أنني كنت مختلفاً عن أترابي، وأن بي من الشذوذ عنهم ما لا يستطيعون استيعابه، وأن الحديث من شأنه أن يسبب سوء الفهم ليس إلا. التزمت الصمت عندما انتشرت قصص الأشباح والعفاريت. ابتسمت لنفسي بكآبة. متفكراً في ليالي الخوف التي عشتها، وعرفت أن قصصي كانت حقيقية، مثلها مثل حقيقة الحياة نفسها، وليست محض أوهام هزيلة وخيالات مظنونة.

بالنسبة لي، لم يكن ثمة رعب يكمن في أفكار البعبع والغيلان الشريرة. بل الرعب هو السقوط من الأغصان المورقة ودوران المرتفعات؛ أرعبتني الثعابين التي كانت تهاجمني وأحاول أن أتفاداها وأنا أقفز هارباً منها مصطك الأسنان من الخوف. الكلاب البرية التي طاردتني عبر العراء الخالي من الأشجار صوب الغابات. لقد كانت تلك أهوالاً ملموسة وواقعية، لم تكن تلك خيالات بل أشياء حدثت لي فعلاً، أنها أشياء من دم ولحم وعرق. أما الغول والبعبع فسأكون سعيداً برفقتهم في مناماتي، مقارنة بتلك المخاوف التي قاسمتني السرير عبر طفولتي، ولا زالت تقاسمني إياه حتى الآن، بينما أكتب وقد مضيت بالعمر عتياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

قلت إنني لم أر في أحلامي أي كائن بشري. وهذهِ هي الحقيقة التي كنت مدركاً لها منذ وقت مبكر جداً، إذ لطالما استشعرت الأسى من افتقاري لمن هو من صنفي. حتى وأنا طفل صغير للغاية، كنتُ قد أحسست، وأنا في خضم الرعب الذي تثيره فيّ مناماتي، أنه لو كان بوسعي إيجاد إنسان واحد، بشريّ واحد فقط، سيكون بوسعي عندها النجاة من أحلامي. ولن تحاصرني بعد ذلك المخاوف المتكررة. استحوذت عليّ تلك الفكرة في كل ليلة من ليالي حياتي، على مدى سنوات، آه لو أن بوسعي العثور على هذا الكائن البشري الواحد، وبهِ سيكون خلاصي!

يتوجب عليّ أن أكرر أنني قد فكرت بذلك وأنا في خضم الحلم، وأعتبر ذلك دليلاً على وجود اندماج في شخصيتي. وبرهاناً على وجود نقطة اتصال بين جزئيَّ المنفصلين عن بعضهما. فشخصية أحلامي عاشت منذ أمد طويل، طويل جداً قبل أن يوجد الإنسان الذي نعرفه اليوم، أما شخصيتي الأخرى، أو شخصية اليقظة فهي تفرض نفسها امتداداً للوجود البشري المعروف اليوم، وهي تتسلل إلى عمق أحلامي.

قد يجد علماء النفس في هذا الكتاب خطأ في طريقة استخدامي عبارة «انفصام الشخصية» أنا أدرك استخدامهم المغاير له، ومع هذا أجدني مضطراً لاستخدامه بطريقتي لعدم وجود عبارة أفضل منها. وألوذ بفعلتي هذهِ بذريعة عدم كفاية اللغة الإنجليزية. أما الآن فاسمحوا لي أن أكمل تفسيري لطريقة استخدامي، أو بالأحرى سوء استخدامي لهذهِ العبارة.

إلى أن صرت رجلاً شاباً، في الكلية، لم يكن لديّ أي فكرة عن مغزى مناماتي، وعلة حدوثها. فحتى ذلك الوقت كانت بلا معنى ودونما أي مسبب معروف. لكنني في الجامعة تعرفت على نظرية التطور ودرست علم النفس، وتعلمت تفاسير مختلف الحالات الذهنية والتجارب النفسية. فمثلاً يُعدُّ حلم السقوط في الفراغ، أكثر الأحلام المعروفة شيوعاً، ومعروف أن هذا الحلم بالذات، قد اختبره كل البشر، كواحد من أولى أحلامهم.

وهذا الحلم، كما أخبرني أستاذي، كان ذكرى عرقية أصيلة. ويعود تاريخه إلى أسلافنا القدامى، أولئك الذين عاشوا على الأشجار. ولكونهم من سكان الشجر فقد كانت احتمالية سقوطهم خطراً يتهدّدهم بشكل دائم. وقد خسر الكثير منهم حياته بالسقوط أساساً، وعانوا جميعهم من سقطات رهيبة، لولا أنهم أنقذوا أنفسهم بالتمسك بالأغصان، بينما كانوا يهوون باتجاه الأرض.

سقطة رهيبة كتلك السقطة، والطريقة التي تم تجنبها بها، ستنتج صدمة، وهذهِ الصدمة كانت مسبباً لتغيرات جزيئية في الخلايا الدماغية، تلك التغييرات انتقلت إلى خلايا دماغ النسل، لتصبح وباختصار ذكريات تتوارثها السلالة كلها. لذا، فعندما نغفو أنا أو أنت، ونحلم أننا نسقط في الفضاء، دائماً ما نستيقظ قبل لحظة من ارتطامنا بالأرض يسيطر علينا شعور كريه بالغثيان، ونحن بذلك نستذكر فقط ما حدث لأسلافنا من سكان الأشجار، ذلك الحدث انطبع بهيئة تغيرات في الخلايا العصبية وصار يتم توارثها عبر السلالة.

ما من غرابة في الأمر، كما لا غرابة في الغريزة. والغريزة لا تعدو أن تكون في أصلها سوى عادة مدموغة فينا بسبب تراكم الوراثة. وسيلاحظ دائماً أنه في حلم السقوط المألوف لك ولي وللجميع، أن الارتطام بالأرض لا يحدث أبداً. ذلك لأن الارتطام بالأرض يقضي على الكائن. ومن أصاب الأرض من أسلافنا الشجريين ماتوا على الفور. صحيح، إن صدمة سقوطهم دُمغت في أدمغتهم كذلك، إلا أنهم ماتوا على الفور، قبل أن يتمكنوا من إنجاب ذرية. أما أنا وأنت، فنحن ننحدر من أولئك الذين لم يصطدموا بالقاع. هذا هو السبب الذي يجعلني وإياك لا نصطدم بالأرض أبداً في حلم السقوط.

والآن أصل بكلامي إلى حيث فصام الشخصية. فكما ترى أن هذا الشعور بالسقطة لا نحسّ بهِ أبداً عندما نكون في تمام اليقظة. تلك الشخصية التي نكون عليها في يقظتنا، لا خبرة عندها بذلك السقوط. إذن ـ وهذهِ حجة لا يمكن مقاومتها ـ يجب أن تكون ثمة شخصية أخرى متمايزة عن شخصيتنا في اليقظة، وتلك هي الشخصية التي تسقط أثناء نومنا، شخصية قد اختبرت سقطة كتلك. بالمختصر، ذكرى من تجارب السلالة في الزمن الخالي، كما إن شخصيتنا عند الصحو تمتلك ذكرى خاصة بتجارب اليقظة في زمننا الحالي.

عند هذهِ المرحلة من الاستنتاجات المنطقية بدأت أرى النور. وسرعان ما انبثق أمامي ضوء باهر السطوع صار يضيء لي ويشرح كل ما بدا غريباً ومستحيلاً في تجاربي الحلمية. في نومي، لم تكن شخصية الصحو التي أنا عليها في نهاري، هي التي تدير زمام الأمور؛ بل ثمة شخصية أخرى متمايزة عنها، شخصية تحمل رصيداً ضخماً من التجارب، تجارب جديدة ومختلفة بالكامل عن تجارب شخصيتي الأخرى، وبالتالي فإن هذهِ التجارب تُفرِز في أحلامي، ذكرياتها وتجاربها المختلفة تلك.

ما ماهية تلك الشخصية؟ متى عاشت حياة يقظة خاصة بها على هذا الكوكب لتجمع هذا الرصيد من التجارب الغريبة؟

كان هذا سؤالاً تُجيب عليه أحلامي بنفسها. لقد عاش الشخص الآخر منذ زمن بعيد، في فترة كان فيها العالم لا يزال يافعاً، في تلك الفترة التي نسميها منتصف العصر الجليدي. لقد سقط من الأشجار ولم يصطدم بالقاع. واصطك خوفاً من زئير الأسود. تمت ملاحقته من الوحوش الكاسرة التي أرادت أن تفترسه، وهاجمته الثعابين القاتلة. وقد هذر مع أشباهه في مجلس القبيلة، ولاقى الأمرّين على يد قوم النار يريد الفرار منهم.

لكني أسمع اعتراضك، لِمَ لمْ تكن الذكريات العرقية تلك من نصيبنا نحن كذلك، ما دمت تعتقد امتلاكنا لشخصية أخرى غامضة تسقط في الفضاء عندما ننام؟

وقد أجيب على ذلك بسؤال آخر. لم يكون لعجلٍ رأسين؟ وإجابتي على ذلك، لأنه مسخ مشوه. وبهذا أجيب على سؤالك. لدي هذهِ الشخصية الأخرى، ولديَّ هذهِ الخبرة العرقية المكتملة لأنني مسخ مشوه.

لكن دعني أسهب في هذا الأمر أكثر. إن أكثر الذكريات شيوعاً في سلالتنا هي حلم السقوط في الفراغ، وهذهِ الشخصية الأخرى ضبابية للغاية. ذكراها الوحيدة هو هذا السقوط. لكن معظمنا لديهم شخصيات أكثر حدة وأكثر تمايزاً، العديد منا لديهم حلم

الطيران، وحلم مطاردة الوحوش، أحلام ملونة، أحلام اختناق، وأحلام ورثوها من الزواحف والهوام. باختصار، إنه في الوقت الذي توجد هذهِ الشخصية الأثرية لدينا جميعاً. فأنها تكون شبه مطموسة لدى البعض، وأوضح لدى البعض الآخر، لدى بعضنا ذكريات عرقية أقوى وأكثر اكتمالاً من غيرهم.

المسألة كلها في تفاوت درجة استحواذ الشخصية الأخرى عليك. وفي حالتي فإن الشخصية الأخرى تستحوذ عليّ بشكل هائل. فالشخصية الثانية التي لديّ متساوية في قوتها تقريباً مع شخصيتي في الصحو. وأنا بذلك ـ كما قلتُ ـ مسخ مشوه في طبيعته، مسخ صنعته الوراثة.

أؤمن فعلياً أن تلك الشخصية الأخرى تستحوذ عليّ ـ إلا أنها ليست بقوة شخصيتي في الصحو ـ الأمر الذي قد يقود غيري من الناس إلى الإيمان بالتناسخ، وهو أمر معقول للغاية بالنسبة لهم، وهي عندهم الفرضية الأكثر إقناعاً. فعندما يستحضرون رؤى لمشاهد لم يسبق لهم رؤيتها فعلياً، تبدو كأنها ذكريات واحداث من زمن بعيد. فإن أبسط تفسير لذلك هو أنهم قد عاشوها فعلياً من قبل.

لكنهم يقترفون خطأ بتجاهلهم مسألة الازدواج في شخصياتهم، إذ أنهم لا يميزون شخصيتهم هذهِ عن الشخصية الأخرى. بل يعتقدون أنها هي شخصيتهم ذاتها، وأنهم لا يمتلكون سوى شخصية واحدة لا غير. ومن خلال فرضية كتلك لن يتمكنوا من الوصول إلا لنتيجة واحدة فقط وهي أنهم قد عاشوا حياة سابقة.

لكنهم ليسوا على صواب، فذلك ليس تناسخاً. لديّ رؤى عن نفسي وأنا أتجول في غابات العالم الشاب، ومع هذا فإن من أراه في تلك الأحلام ليس ذاتي أنا، بل جزء بعيد مني، فمثلما يُعدّ والدي وجدي أجزاء من ذاتي، وإن كانوا أقرب إليّ منه، كذلك فإن تلك النفس الأخرى هي ليست إلا سلفاً، إنه جدٌّ لأجدادي في الخط الباكر من سلالتي، وهو نفسه ليس إلا نسلاً في خط سلالة أقدم منه، سلالة تطورت لتحوز على أصابعَ في أيديها وأقدامها فتسلقت الأشجار.

يتوجب عليّ أن أكرر، مخاطراً بإثارة الملل في نفسك، إنني وفقاً لهذهِ الخصلة بالذات، فأنا مسخ. أنا لست الوحيد الذي يمتلك ذكريات قديمة من سلالته، لكنني أختلف عن غيري بخصيصة واحدة والتي تتمثل في امتلاكي لذكريات سلف محدد بالذات، سلف بعيد للغاية. ومع أن ذلك ليسَ بالأمر المعتاد، فهو لا يبعث على الدهشة أيضاً.

وفقاً لمنطقي، فالغريزة هي ذاكرة للعرق، جيد جداً. إذن فأنا وأنت وكل شخص آخر نتلقى هذهِ الذاكرات من آبائنا وأمهاتنا، كما تلقوها بدورهم من آبائهم وأمهاتهم. لذا فلا بد من وجود وسيط ينقل هذهِ الذكريات من جيل إلى آخر. هذا الوسيط هو ما يسمه وايزمان([3]) «البلازما الجرثومية» تلك الحاملة لِذكريات تطور العرق. هذهِ الذكريات، ذكريات باهتة ومشوشة، يضيع الكثير منها. لكن سلالات بعينها من تلك البلازما الجرثومية تحمل معها شحنة مفرطة من الذكريات، وبلغة علمية فإن هذهِ السلالات أكثر ارتداداً إلى أصل أسلافها من غيرها، وسلالتي من هذا النوع. أنا مسخ، كابوس متقهقر إلى الأصل، سمني بما تشاء، لكني موجود هنا، حقيقي وحيّ، آكل ثلاث وجبات شهية كلّ يوم، فما أنت بصانع حيال ذلك؟

الآن وقبل أن أسرد حكايتي، أريد أن أستبق الرد على المشككين من الثوماسيين([4]) من علماء النفس، ممن سيتعرض لي بالسخرية، أو من سيؤكد بالقول على أن الترابط المنطقي في أحلامي هو نتاج الإفراط في الدراسة، والإسقاط اللاواعي لمعرفتي بالتطور؛ على أحلامي. أنا في المقام الأول لم أكن طالباً مجداً أساساً، لقد تخرجت وأنا الأخير على صفي. اهتممت بالرياضة أكثر من اهتمامي بالدراسة ـ ومع أن ما من سبب للاعتراف بذلك ـ فقد اهتممت بالبلياردو أكثر من اهتمامي بالدراسة.

علاوة على ذلك، لم تكن لدي أدنى معرفة بنظرية التطور قبل أن أدخل الكلية، في الوقت الذي كنتُ قد عايشت في طفولتي وشبابي أحلاماً عن تلك الحياة الأخرى البعيدة لفترة طويلة. يتوجب عليّ مع ذلك أن أعترف أن تفاصيل تلك الأحلام كانت مشتتة وغير متماسكة منطقياً حتى صرت إلى المعرفة بالتطور. كان التطور هو المفتاح الذي أعطاني الإجابة، لقد منحني التعقل في مواجهة الألغام التي تفخخ هذا العقل المرتد إلى الماضي. هذا العقل الحديث الذي عاد إلى الماضي البعيد ليعاصر البدايات الخام للبشرية.

لأنه في الماضي الذي أعرفه، لم يكن الإنسان الذي نعرفه الآن موجوداً بعد. أما ذاتي الأخرى فلا بد أن تكون قد عاشت، ووجدت هناك في فترة تكون الجنس البشري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

كان الحلم الأكثر تكراراً في طفولتي المبكرة شيئاً من هذا القبيل: أبدو في الحلم صغيراً للغاية وقد استلقيتُ متكوراً في ما يشبه عشاً من أفرع النباتات والأغصان. كنتُ أستلقي على ظهري أحياناً. وكان يبدو أنني قد أمضيت ساعات كثيرة في هذا الوضع، أراقب تراقص أشعة الشمس على الأوراق وتأرجحها بتأثير الريح. غالباً ما كان العش نفسه يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال عندما تكون الريح قوية.

لكنني كنتُ طوال فترة استلقائي على العشب مغلوباً على أمري في مواجهة فراغ هائل أشعر به تحتي. لم أر الفراغ قط، لم أسترق النظر من حافة العش لرؤيته، لكنني كنتُ عارفاً بذلك الفراغ الكامن في الأسفل وخائفاً منه، الفراغ الذي يتهددني مثل جوف وحش مخيف على وشك افتراسي.

هذا الحلم، وتلكَ السكينة التي أعيشها فيه، كان أشبه بحالةٍ أكثر من كونه تجربة فعلية بحد ذاتها. غالباً ما حلمت هذا الحلم في طفولتي المبكرة، لكن دائماً ما يحدث على حين غرة، صخب تتخلله هيئات غريبة واحداث عنيفة. رعد وعواصف محطمة، أو مناظر طبيعية لأماكن غير مألوفة عندي، ولا عهد لي بها في يقظتي. كانت النتائج مربكة وكابوسية. لم أستطع فهم أي شيء منها. إذ لم يكن ثمة تسلسل منطقي للأحداث.

فلتولِ هذا الأمر عنايتك، إن مناماتي لم تكن متسلسلة. كنتُ في لحظة طفلاً في العالم الفتيّ مستلقياً في عشي على الشجرة، وفي اللحظة التالية أجدني رجلاً ناضجاً من العالم الفتيّ في خضم شجار مع العين الحمراء البغيض. وثم في اللحظة التالية وبلا مقدمات أرى أنني أتسلل بحذر إلى حفرة ماء بعيداً عن حرارة النهار. الأحداث والسنوات المتباعدة عن بعضها في العالم الشاب، كانت تُعرض لي في غضون دقائق وثوانٍ.

كان الأمر غاية في التشويش، تشويش لا أود أن أثقل كاهلك بهِ. ولم يستقم كل شيء ليصير واضحاً في نظري حتى صرت شاباً وبعد أن رأيت تلك المنامات آلاف المرات. عندها صار بوسعي فهم ما استغلق عليّ من أمور، وصرتُ قادراً على ربط الأحداث والمتغيرات في ترتيبها المفترض. وهكذا صرتُ قادراً على إعادة تمثيل العالم المتلاشي كما كان في الفترة التي عشتها ـ أو الفترة التي عاشت فيها ذاتي الأخرى ـ ما من داعٍ للتفريق بينا؛ لأنني أنا أيضاً، الرجل الحديث، خضت تلك الحياة المبكرة لسنوات وسنوات برفقة ذاتي الأخرى.

ولكي أزيل عنك العبء، ولئلا يصير كتابي هذا خطبة اجتماعية، سأقوم بتفريق الأحداث لتصير قصة يستساغ فهمها. وفي سبيل توثيق ما جرى من الأحداث هناك، فثمة خيط معين من الاستمرارية في الأحداث على طول مناماتي كلها. مثل حكاية صداقتي مع مسترخي الأذن على سبيل المثال، وهناك عداوتي للعين الحمراء كذلك، وحبي للسريعة.

وكل هذا سيجعل من قصتي، قصة مثيرة للاهتمام متماسكة بشكل لا بأس به، وأنا متأكد من كونك ستوافقني الرأي.

لا أتذكر الكثير عن والدتي. من المحتمل أن تكون أقدم ذكرى لها عندي ـ وأكثرها وضوحاً بالتأكيد ـ هي كالتالي: كنتُ مستلقياً على ما يبدو على الأرض. وكنتُ إلى حد ما أكبر سناً مما كنتُ عليه في أيام العش، لكنني ما زلتُ بلا حول ولا قوة. أتدحرج على الأوراق الجافة، ألهو بها واحدث ضجة وأُطلق أصواتاً تشبه الصرير من حنجرتي. كانتْ الشمس مشرقة بدفء وأنا سعيد ومطمئن. بينما أنا في مساحة مكشوفة قليلاً، وثمة أشجار وشجيرات تشبه السراخس، وجذوع أشجار الغابة وأفرعها في كل مكان حولي.

على حين غرة، سمعتُ صوتاً ما، فانتصبت واقفاً وأصغيت السمع. لم أتحرك قيد أنملة. أما الضجة الصغيرة التي كانت تخرج من حنجرتي فقد توقفت، ووقفت كالمتحجر. اقترب الصوت أكثر. وقد كان أقرب إلى نخر خنزير. ثم بدأتُ بسماع أصوات لجسم يتحرك بين الشجيرات. بعد ذلك رأيت السراخس تتحرك بفعل جسد يمر بينها، لتنفتح بعدها ويقع نظري على عينين لامعتين، خطم طويل وأنياب بيضاء.

لقد كان خنزيراً برياً. كان يحدق في وجهي بفضول. نخر مرة أو مرتين وهو ينقل وزنه من ساق إلى أخرى، محركاً في الوقت ذاته رأس من جانب إلى آخر، فتميل السراخس مع حركته. مع هذا بقيت في مكاني كالمتحجر، لم يرف لي جفن وأنا أحدق فيه، بينما الخوف ينهش قلبي.

بدا أن سكون الحركة هذا والصمت هما ردة الفعل المتوقعة مني. لم أكن لأنفجر في وجهه باكياً من شدة الخوف. لقد كانت ردة فعلي تلك فرضاً غريزياً. لذا وقفت هناك منتظراً ما لا أعرفه. نحى الخنزير السراخس جانباً وخطا نحو العراء، وقد ذهب عن عينيه الفضول، لتلتمع العينان بقسوة بعدها. ثم وجه رأسه باتجاهي مهدداً وتقدم خطوة فأخرى وتلاها بثالثة.

عندها صحت أو بالأحرى صرخت صرخة عالية قوية، ليس بوسعي وصف تلك الصرخة، لكنها كانت صرخة رهيبة وصاخبة. وهذا ما أملته عليّ غريزتي كذلك. ففي هذهِ المرحلة من الأحداث، كان هذا هو المتوقع مني. ومن مكان ليس بالبعيد تناهت إلى مسمعي صرخة استجابة رداً على صرختي. للحظة بدت الأصوات مربكة للخنزير، وبينما بدا ضعيفاً وهو ينقل وزنه من ساق إلى أخرى فاقداً لصوابه، اندفع كيان غريب نحونا.

كانت أشبه بقرد اورانجتان([5]) ضخم، أو مثل شمبانزي، وهي مع ذلك مختلفة للغاية عنهما، اختلافاً واضحاً ومميزاً. كانت أضخم بنية منهما، وأقل شعراً. لم تكن ذراعاها غاية في الطول، وكانت ساقاها أشد متانة. لم يكن عليها أي ثياب خلا شعر جسدها الطبيعي. وبوسعي أن أعرف أنها كانت غاضبة وثائرة.

وفي فورة غضبها تقدمت إلى المشهد، تصر على أسنانها، مفتعلة صريراً مرعباً، مزمجرة، وهي تُطلق صيحات حادة ومستمرة تشبه «خا ـ آه، خا ـ آه» كان ظهورها هائلاً للغاية ومباغتاً مما جعل الخنزير يستجمع نفسه تلقائياً في وضع دفاعي وقد انتصب شعره خوفاً، بينما كانت تتقدم باتجاهه. لقد خطفت أنفاسه بلا شك. ثم انحرفت باتجاهي.

وكنت أعرف ما يتوجب عليّ فعله بالضبط، في اللحظة التي ظهرت فيها. قفزت لملاقاتها، وتشبثت بخصرها مطوقاً إياها بيدي وقدمي. نعم، بقدميَ، لقد كان بوسعي استخدامهما بسهولة مثل سهولة استخدام اليدين. كان بوسعي الشعور بقبضتي المتوترة تجر الشعر الذي على جلدها، وبحركة عضلاتها وهي تنتقل بجهد.

قفزت باتجاهها، كما قلت، وقفزت هي على الفور في الهواء وقد أمسكت بغضن متدل بين يديها. في اللحظة التالية، اندفع الخنزير من تحتنا، بأنيابه الكاسرة. فقد أفاق من دهشته واندفع إلى الأمام، مصدراً صريراً يكاد يشبه نفير البوق. ولا بد أن صيحته تلك كانت نداءً بشكل ما، فقد تلاها اندفاع للأجساد عبر السراخس والشجيرات من كل الاتجاهات.

هبت الخنازير البرية من كل جانب مندفعة إلى الفضاء المفتوح، عشرة منها. لكن والداتي التي تعلقت على قمة جذع سميك، على بعد اثني عشر قدماً من الأرض، كانت لا تزال في مكانها، مكثنا هناك آمنين، وكانت هي غاية في الهياج. كانت تهذر وتصيح، وتطلق أصوات الاستهجان لحلقة الخنازير التي تجمعت تحتنا نافشة شعرها، مكشرة عن أنيابها. أنا أيضاً وبينما كنتُ أرتعد خوفاً وأنا أحدق في الوحوش الغاضبة تحتي بذلت قصارى جهدي لتقليد صياح والدتي.

ومن بعيد جاءت صيحات مماثلة، سوى أنها أعمق طبقة، أشبه بهدير منخفض النوتة. تعالت تلكم الصيحات بسرعة، وسرعان ما أبصرتُ والدي قادماً، أو على الأقل من استنتجت أنه والدي في ضوء ما وجدت من براهين في حينها.

لم يكن أباً مثيراً للإعجاب كثيراً، كما هو حال الآباء. بدا كما لو أنه نصف رجل، ونصف قرد، سوى أنه ليس قرداً، ولم يصبح بشراً بعد. أفشل في وصفه، إذ إن لا شيء يماثله اليوم، لا فوق الأرض ولا تحتها. لقد كان رجلاً ضخماً بالنسبة لزمنه، لا بد أن وزنه كان مائة وثلاثين رطلاً. كان له وجه واسع ومسطح، وحاجبان كثان يتدليان فوق عينيه. كانت له عينان صغيرتان وعميقتان، ومتقاربتان من بعضهما. لم يكن له أنف على الأطلاق، فقد كان أنفه أفطسَ وواسعاً، ويبدو بلا أي قصبة، بينما المنخران أشبه بثقبين في وسط وجهه، ينفتحان إلى الأمام، عوضاً عن الأسفل.

كانت جبهته تضيق فوق العينين، إذ يبدأ الشعر بالنمو فوق العينين مباشرة، ويستمر ليغطي الرأس. كان الرأس صغيراً بشكل غير متسق، تدعمه عنق قصيرة ومتينة تفتقر بدورها للاتساق مع باقي الجسد.

كان هناك اقتصاد في مادة جسده، كما كان في أجسادنا كلنا. صحيح أن صدره كانَ عميقاً مثل كهف، لكن لم تكن لديه تلك العضلات الممتلئة ولا الأكتاف العريضة الواسعة، لم يكن جسده تام الاستقامة، وما من سخاء في تناظر خطوطه. جسد والدي هو مثال للقوة، إلا أنها قوة بلا جمال؛ إنها القوة البدائية والشراسة المصنوعة لتجذب وتمسك وتخرب وتدمر.

كان وركاه نحيلين؛ أما الساقان فهما هزيلتان يكسوهما الشعر، وعضلات الساق ملتوية ومشدودة. في الواقع، كانت ساقا والديّ أشبه بالذراعين. كانتا مفتولتين ومعقودتين لا شيء فيها من ربلة الساق الممتلئة لحماً التي تزين ساقي وساقك. أتذكر أنه لم يكن يستطيع المشي بشكل مستوٍ على باطن قدميه. كان مردّ ذلك لكون

القدم البدائية تشبه في تكوينها هيئة اليد أكثر من شبهها بالأقدام اليوم. وبدلا عن أن يكون الأصبع الكبير في الساق على خط واحد مع بقية الأصابع، تجده يعاكس بقية الأصابع كما لو كان إبهاماً، وقد مكنتنا معاكسة الأصبع الكبير لباقي الأصابع من إمساك الأشياء بأقدامنا. هذا هو السبب الذي جعل والدي غير قادر على المشي بسهولة على قدميه.

لكنّ مظهره لم يكنْ أكثر غرابة من طريقة مجيئه، كنت وأمي قد تسلقنا إلى أعلى الأشجار فوق الخنازير البرية الغاضبة، فجاء هو عبر الأشجار قافزاً من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى أخرى. وقد جاء مسرعاً، بوسعي أن آراه الآن في يقظتي وأنا أكتب، متأرجحاً عبر الأشجار بأذرعه الأربعة، كائناً مُشعراً، يزمجر بغضب، متوقفاً بين حين وآخر ليضرب صدره بقبضته المشدودة. يقفز قفزات واسعة وكل قفزة يبلغ مداها بين عشرة وخمسة عشر قدماً، قابضاً بيده على فرع ويتبعها بيده الأخرى، يتقدم في سرعة دونما تردد أبداً، ولا تساوره الحيرة أبداً وهو في طريقه بين الأشجار.

وفيما كنتُ أراقبه شعرتُ بالحافز في كياني وفي عضلات جسمي كلها، وبنشوة الرغبة بالقفز من غصن إلى آخر مثله؛ واستشعرت الضمان في امتلاكي القوة ذاتها التي فيه، وعرفتُ أنها كامنة في كياني وعضلاتي. لم لا؟ ألا يراقب الأولاد الصغار آباءهم وهم يلوحون بالفؤوس فتسقط الأشجار، ويشعرون في دخيلتهم أنهم وفي يوم ما سيكون بوسعهم كذلك أن يلوحوا بالفأس ويطيحوا بالأشجار. وهكذا كان الحال معي. كانت الحياة تتشكل في داخلي كي أكون مثل والدي، وهي تهمس لي سراً وتُشعل فيّ التوق الشديد للانطلاق في دروب الغابات.

أخيراً انضم والدي إلينا. كان غاضباً للغاية. أتذكر شفته السفلى المتدلية وبروزها إلى الخارج وهو يحدق إلى الخنازير البرية تحتنا. كان يزمجر مثل الكلاب إلى حد ما، وأتذكر أن أنيابه كانت كبيرة كأنياب الحيوان، وأنها كانت مثاراً لإعجابي الشديد.

لم ينفع سلوكه في شيء، سوى التسبب في زيادة هياج الخنازير. قام بتكسير الأغصان والأفرع الصغيرة وقذفها على أعدائنا. حتى إنه تعلق بيد واحدة وتدلى بالقرب منها، حتى تكاد الخنازير تصل إليه فلا تفلح، ساخراً من الخنازير وهي تصك أسنانها بغضب لا طائل منه. ودون أن يكتفي بذلك، قام بكسر غصن متين وأمسكه بيد واحدة وقدم واحدة، وضرب الحيوانات الغاضبة في الجانب الآخر على أنوفها. ما من حاجة للقول إنني وأمي استمتعنا باللعبة.

لكن المرء يمل كل الأشياء الطيبة، وفي النهاية قاد والدي الطريق عبر الغابة وهو يقهقه بخبث. أما الآن فقد انحسرت طموحاتي وتلاشت، وصرتُ مخلوع الفؤاد، أتمسك بوالدتي بشدة بينما هي تتسلق وتتأرجح في الفضاء. أتذكر عندما انكسر غصن من ثقل وزنها، كانت قد قفزتْ قفزة واسعة في حينها، ومع انكسار الأخشاب صرتُ مغلوباً على أمري تحت وطأة الوعي الكريه بأن كلانا نسقط عبر الفضاء. الغابة وأشعة الشمس المنعكسة على أوراق الشجر تلاشت عن ناظري. رأيت أبي في لمحة باهتة يتوقف عن تقدمه فجأة لينظر نحونا ثم كان كل شيء معتماً.

في اللحظة التالي كنتَ استيقظ في فراشي المغطى بالعرق آرتجف وآنا في حالة من الغثيان. كانت النافذة مرفوعة والهواء البارد يهب عبر الغرفة. والمصباح يحترق بهدوء. وبسبب ذلك اعتبرت أن الخنازير البرية لم تصل إلينا، لأننا لم نصطدم بالقعر؛ وإلا لما كنتُ سأكون هنا بعد آلاف القرون لتذكر ما حدث.

والآن ضع نفسك في مكاني للحظة. تمش معي قليلاً في طفولتي الهشة، شاركني الفراش في الليل وتخيل نفسك حالماً بمثل هذا الرعب الذي لا يسبر غوره. تذكر أنني كنتُ في حينها طفلاً غراً. لم أر خنزيراً برياً في حياتي قط. بل في واقع الأمر لم أكن قد رأيت خنزيراً مدجناً حتى، وأقرب ما عرفته عن ذلك كان لحم الخنزير المقدد وهو يأز في دهنه على الإفطار. ورغم ذلك، تمر خنازير برية حقيقية كحقيقة الحياة نفسها عبرَ أحلامي وأنا برفقة والدين رائعين، أتمايل عبر فضاء الأشجار السامقة.

أتتعجب بعد ذلك من كوني خائفاً ترهقني الليالي التي تعصف بها الكوابيس؟ لقد كنتُ ملعوناً، والأسوأ من ذلك كله كنتُ خائفاً من الحديث. لا أعرف سبباً لذلك الخوف، فيما عدا شعوري بالذنب، رغم أني لم أعرف أي ذنب هو ذنبي أساساً. بقيت أكابد المعاناة بصمت لسنوات عديدة، حتى بلغتُ مبلغ الرجال، إذ ذاك عرفت علة أحلامي ومعلولها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

ثمة لغز محير بشأن ذكرياتي تلك عن عصر ما قبل التاريخ، وهو الغموض في عامل الزمن. لمْ أعرف دائماً تسلسل الأحداث، ولا يمكنني معرفة الزمن بينَ حدث وآخر، أيكون الفارق بينهما سنة أو اثنتان أو أربعة أو خمس سنوات. يسعني بالكاد أن أتبين مرور الوقت بالحكم على التغيرات التي طرأت على مظهر رفاقي وممارساتهم.

بوسعي كذلك أن أستعمل المنطق في الحوادث المتباينة. على سبيل المثال، ما من شك بأي حال من الأحوال بأني وأمي لجأنا إلى الأشجار وهربنا من الخنازير البرية وسقطنا قبل زمن من معرفتي بمسترخي الأذن، ذاك الذي صار ما يمكن أن أدعوه برفيق الصبا. ومن الأمور المحسومة بنفس القدر أنني لا بد أن أكون قد تركت والدتي بين هاتين الفترتين.

لا ذكرى عندي لوالدي سوى تلك التي ذكرتها، لم يحدث أن ظهر أبداً في السنوات التي تلت ذلك. ومن معرفتي بذلك الزمن فإن التفسير الوحيد يكمن في أن يكون قد لقي حتفه بعد فترة قصيرة من مغامرة الخنازير البرية تلك. ولا بد أن قضي قبل أوانه، ما من نقاش في ذلك، لقد كان وافر الحيوية، وما كان من الممكن أن ينتزعه من الحياة، سوى ميتة مباغتة وعنيفة. إلا أنني لا أعرف كيف مضى، سواء أغرق في النهر، أم ابتلعه ثعبان، أم استقر في معدة النمر العجوز «السن القاطع»، كل ذاك بعيد عن معرفتي.

مع العلم أنني لا أتذكر إلا الأشياء التي رأيتها بأم عينيّ، في أيام ما قبل التاريخ تلك. لكن حتى لو أن لوالدتي عرفت بنهاية والدي، فهي لم تخبرني بها مطلقاً. وبهذا الخصوص فأنا أشك في امتلاكها لمفردات كافية لنقل معلومات كتلك على الأغلب، على أي حال، لم يكن لدى القوم في حينها مفردات تربو على ثلاثين أو أربعين صوتاً.

أنا أدعوها بالأصوات، بدلاً عن كلمات، لأنها كانت أصواتاً في المقام الأول. لم يكن لها معان ثابتة، لتصاغ منها الصفات أو الظروف. فوسائل الكلام تلك لم تكن قد أبتكرت بعد. بدلاً عن تعديل الأسماء والأفعال لتصير صفات وظروفاً، كنا نعدل الأصوات بالتنغيم، وذلك بتغيير مقدار الصوت ونغمته بالإبطاء والتسريع. ومقدار الزمن الذي نوظفه في نطق صوت معين يلون معناه.

لم تكن لدينا تصريفات للأفعال أيضاً، يحكم المرء على زمن الحديث عبر السياق. تحدثنا عن ملموسات فحسب لأننا فكرنا بالملموس فقط. اعتمدنا أيضاً وبشكل كبير على الإيماء. حتى أبسط أشكال التجريد كان يفوق قدرتنا على التفكير؛ ولو حدثَ أن فكرَ الواحد منا بفكرة مجردة، لشقَ عليه إيصالها إلى رفاقه. إذ لم يكن ثمة أصوات تصفها. وقد يُجهد المرء نفسه في فكرة، ثم يجتهد ليتجاوز حدود مفرداته ويبتكر أصواتاً جديدة لفكرته، لكن رفاقه لن يفهموا تلك الأصوات. فيعود للإيماء مجدداً، موضحاً قصارى ما يستطيع إيضاحه ومكرراً للصوت مرة تلو الأخرى.

هكذا تنامت اللغة. كنا قادرين من خلال الأصوات القليلة التي نملكها على أن نفكر لمسافة قصيرة تتجاوز تلك الأصوات، ثم تأتي الحاجة إلى أصوات جديدة للتعبير

عن الفكرة الجديدة. ومع ذلك كنا في بعض الأحيان نفكر لمسافة أبعد من مدى أصواتنا، متمكنين من إنشاء تجريدات (أضمن لكَ أنها تجريدات بسيطة)، والتي كنا نخفق تماماً بتعريف بقية القوم بها. فرغم كل شيء، لم تكن اللغة تنمو بسرعة في حينها.

آه، صدقني، كنا بسطاء بشكل يبعث الدهشة. لكننا كنا نعرف الكثير مما ليس معروفاً اليوم. كان بوسعنا التحكم في حركة آذاننا، وجعلها تنتصب ثم نخفضها بسرعة. وكان بوسعنا حك ما بين أكتافنا. كان بوسعنا رمي الحجارة بأقدامنا. لقد فعلتها مرات كثيرة. وبخصوص ذلك فقد كان بوسعي الحفاظ على ركبتي مستقيمة والانحناء إلى الأمام من عند الورك، وتكون لي القدرة عندها للمس الأرض ليس بأطراف أصابعي فحسب بل حتى بمرفقي. أما بالنسبة لأعشاش الطيور فأنني فقط أتمنى لو أن بوسع صبي القرن العشرين أن يرى ما كنا نصنعه. إلا أننا لم نكن نجمع البيض، كنا نأكله.

أنا أتذكر الكثير من ذلك، ــ لكن عليّ أن أستمر بقصتي ــ دعني في البداية أخبرك عن مسترخي الأذن وصداقتنا. في وقت مبكر للغاية من حياتي انفصلت عن والدتي. محتمل أن يكون مرد ذلك راجعاً لكونها قد اتخذت لنفسها زوجاً ثانياً بعد وفاة والدي. لدي ذكريات قليلة عنه، وليست من أفضل الذكريات. كان فرداً تافهاً، ما من صلابة فيه، وقد كان مهذاراً للغاية. لا تزال ثرثرته الجهنمية ترهقني إلى الآن عندما أفكر فيها. كان عقله غاية في البلاهة مما منعه من امتلاك غاية من الحديث. لطالما ذكرتني بهِ القردة في الأقفاص. كان قردياً. هذا هو الوصف الأفضل الذي يمكنني تقديمه له.

لقد كرهني منذ البداية، وأنا تعلمتُ بسرعة أن أخشاه وأخشى مقالبه الخبيثة. كلما لاح في الأفق أزحف لأكون بقرب والدتي وأتمسك بها. لكنني كنتُ أزداد سناً طوال الوقت، وكان محتماً عليّ أن أهيم بعيداً عنها من وقت لآخر، وأن أستمر بالابتعاد عنها أكثر فأكثر، وكانت تلك الفرص هي التي يتحينها الثرثار (يجب أن أخبرك أننا لم نتخذ أسماء في تلك الأيام؛ لم نعرف بإيما اسم. لكن في سبيل السهولة قمت بتسمية القوم الذين كنت على اتصال قريب بهم، و«الثرثار» هو الوصف الأكثر ملائمة الذي أستطيع إيجاده لزوج أمي الغالي. أما فيما يخصني فقد سميت نفسي «السن الكبير» فقد كانت أنيابي كبيرة بشكل واضح).

لكن لنعد إلى الثرثار. لقد روعني باستمرار. كان دائماً ما يقرصني ويلطمني، ويكون أحياناً على وشك أن يعضني. وكانت والدتي تتدخل لتحول بيننا في أغلب الأوقات، ولكم كانت تقر عيني بالطريقة التي تجعل وبره ينتصب خوفاً منها. ومن كل ذلك كان ينتج صراع عائلي جميل لا ينتهي، وكنتُ أنا العظمة التي يتصارعان عليها.

لا، لم تكن حياتي العائلية سعيدة. أنا أبتسم لنفسي وأنا أكتبُ هذهِ العبارة. الحياة العائلية!

المنزل! لم يكن لديّ منزل بالمعنى الحديث لهذا المصطلح. كان بيتي مجرد مكان للنوم فيه، ولم يكن سكناً. عشتُ في رعاية والدتي لا في منزل. ووالدتي كانت تعيش أينما اتفق، ومتى ما داهمنا الليل كانت تلتجئ إلى مرتفع من الأرض.

كانت من الطراز العتيق، وَلا تزال تتشبث بأشجارها. صحيح أن الأفراد الأكثر تقدماً من قومنا عاشوا في الكهوف فوق النهر. لكن والدتي كانت مرتابة من الأمر ورجعية في فكرها. كانت الأشجار جيدة بما يكفي بالنسبة لها. صحيح أن لنا شجرة محددة كنا عادة ما نأوي إليها، لكننا مع هذا لم نعدم أن نأوي إلى أشجار أخرى إذا جن علينا الليل بغتة. في تفرع فسيح لمجموعة من الأغصان، كانت هناك منصة خشنة من الأغصان والفروع وشيء من العرائش. كانت أشبه بعش طير ضخم أكثر من شبهه بأيّ شيء آخر، إلا أنه كان أكثر بدائية بكثير في طريقة نسجه من عش أي طير. ومع ذلك فإن فيه ميزة لمْ أرها قط عند أي طير، وهو ما أدعوه بالسقف.

آوه، ليس سقف العش سقفاً بالمعنى الفعلي، فهو لا يشبه في شيء السقوف التي يصنعها الإنسان الحديث! ولا هو مقارب حتى لسقف من صنيع أدنى الأقوام الأصليين المعاصرين. لقد كان بلا شك عملاً لا يضاهيه في الخرق أقل الأعمال اليدوية إتقاناً للإنسان الذي نعرف. تم تجميع السقف بشكل غير منتظم وكدست المواد فوق بعضها البعض في هرج ومرج. فوق موضع التفرع في أغصان الشجرة التي استرحنا فيها، كانت تجثم كومة من الفروع والأجمات اليابسة. أربعة إلى خمسة أفرع متجاورة شكلت ما يمكن أن أدعوه الأوتاد. وتلك لا تعدو في أساسها سوى أغصان متينة قطرها بوصة أو نحو ذلك. تجثو عليها الأجمات والأغصان. وبدت تلك الإضافات كما لو أنها رميت بلا غاية تقريباً، ولم يُبذل أي جهد يُذكر عند التسقيف. ولا بد أن أُقر لكم بأن هذا السقف كان يسرب الماء بشكل بائس في المطر الغزير.

لكن الثرثار جعل من الحياة العائلية عبئاً عليّ وعلى أمي، وما أعنيه بالحياة العائلية ليس العش المتسرب على الشجرة، بل الحياة الجماعية لنا نحن الثلاثة. كان غاية في الخبث في اضطهاده إياي. وذلك هو الهدف الوحيد الذي بوسعه الثبات عليه لأكثر من خمس دقائق. علاوة على ذلك، صارت أمي أقل شغفاً بالدفاع عني بمرور الوقت. أظن أن النزاعات المستمرة التي أثارها الثرثار جعلت مني مصدر إزعاج لها. على أي حال، فقد انتقل الوضع من سيء إلى أسوء بسرعة كبيرة إلى حد بدا فيه أنني يجب أن أُغادر المنزل قريباً وبمشيئتي. لكن الرضا الذي كان سيبعثه فيّ القيام بذلك بنفسي أُنكر عليّ. فقبل أن أصير مستعداً للذهاب، تم طردي، وأنا أعني ذلك حرفياً.

أتيحت تلك الفرصة للثرثار عندما كنت وحدي في العش ذات يوم. كان قد ذهب هو وأمي إلى مستنقع التوت البري ولا بد أن يكون قد خطط لكل شيء قبلها، فقد سمعته يعود لوحده عبر الغابات، هادراً بالغضب من تلقاء نفسه ما إن وصل. ومثله مثل كل رجال قطيعنا، حينما يكونون في حالة غضب أو يحاولون أن يبدوا كذلك، كان يتوقف من حين وآخر ليدق صدره بقبضته.

أدركت عجز حالي، فتكورت مرتجفاً في العش. توجه الثرثار إلى الشجرة مباشرة ــ أتذكر أنها كانت شجرة بلوط ــ وبدأ بتسلقها. ولم يتوقف للحظة في تقدمه. كما قلت مسبقاً، كانت لغتنا هزيلة للغاية، ولا غرو أنه قد جذب اللغة وشدها بمختلف الطرق حتى يُعرفني عبر ما أطلقه من أصوات بكراهيته التي لا تلين لي، وعن نيته لتصفية حساباته معي.

وبينما كان يتسلق ليصل التفرع، هربت من الغصن الأفقي الكبير. فتبعني، ومن هناك ذهبتُ أبعد فأبعد. في النهاية كنت بين أغصان صغيرة وأوراق. لطالما كان الثرثار جباناً، وكان حذره أعظم من أي غضب تملكه. كان خائفاً من تتبعي بين الأوراق والأغصان. وعلى أي حال، فإن وزنه الأثقل مني كان سيتسبب بسقوطه قبل أن يتمكن من الوصول إليّ.

لكن، لم يكنْ ضرورياً بالنسبة له أن يصل إليّ، وهو ما يعرفه جيداً، الوغد! بنظرة خبيثة على وجهه وقد تلألأت عيناه الخرزيتان بذكاء قاس، بدأ يتأرجح، يتأرجح! ـ ومع وجودي على الحافة البعيدة جداً للغصن، متمسكاً بغصين كان يتكسر بالتدريج بسبب ثقلي. كان بيني وبين الأرض تحتي عشرون قدماً.

قام بهز الغصن بعنف أكثر فأكثر، وهو يكشر أسنانه لي بكراهية شامتاً بي. ثم حلت النهاية، فقد انكسرت كل الأوتاد الأربعة في ذات الوقت وسقطتْ، وسقطتُ معها بدوري وظهري إلى الأرض، أنظر إليه وهو في الأعلى بينما لا تزال يداي وقدماي متمسكتين بالأغصان المكسورة. من حسن حظي أن ما من خنازير برية تحتي هذهِ المرة، وقد خفف من شدة سقطتي الأجمات الصلبة والناعمة التي تلقفتني.

في العادة كان السقوط في حلم من أحلامي ينسف ذلك الحلم، وتكون الصدمة العصبية قوية كفاية لتعبر الألف قرن فتقذفني قذفة هائلة في سريري الصغير، من المحتمل أن أستلقي هناك متعرقاً ومرتعشاً يتناهى لسمعي عصفور الساعة وهو ينادي بالوقت في الصالة. لكن هذا الحلم عن مغادرتي المنزل راودني مرات عديدة، ولم يحدث أن استيقظت منه. فأنا أصطدم بالأرض دائماً بضجة كبيرة، مرتجفاً، مذلاً بين الشجيرات.

تملؤني الخدوش والجروح والكدمات. أرقد حيث سقطت. أحدقُ عبرَ الأحراش. وأرتفع بناظري نحو الثرثار. كان بوسعي رؤيته وقد أنشأ يصيح في هتاف شيطاني من السعادة وكان لا يزال في الوقت ذاته مستمراً بتأرجحه. أتوقف عن نشيجي بسرعة. إذ لم أعد آمناً فوق الأشجار، أنا أعرف الخطر الذي سأجلبه على نفسي بجذب الحيوانات المفترسة إليّ بتعبيري الصاخب عن الألم.

أتذكر أنني ما إن بدأتْ تنهداتي تقل، حتى صرتُ مهتماً بمراقبة الأثر الغريب للضوء على جفني نصف المفتوحتين والمبللتين بالدمع. ثم بدأت بالتحري فوجدت أنني لمْ أتضرر بشدة من سقطتي. وقد انسلخ عني بعض الشعر والجلد هنا وهناك، وانغرست النهايات الحادة والمسننة لفرع مكسور لبوصة كاملة في ساعديّ، أما وركي الأيمن، والذي كان قد تحمل عبء سقطتي على الأرض، فقد كان يؤلم بشكل لا يمكن احتماله. لكن رغم كل شيء فكل تلك كانت مجرد آلام بسيطة، فما من عظام متكسرة، وفي تلك الأيام كان جسد الإنسان أسرع شفاء مما هو عليه في الوقت الراهن. لكنها كانت سقطة شديدة مع ذلك، وقد عرجت من وركي المصاب أسبوعاً كاملاً بعدها.

بعد ذلك. وبينما كنتُ مستلقياً بينَ الأحراش، حلّ عليّ شعور مقيت بالأسى، وصرتُ على وعي بكوني غدوت بلا مأوى. عقدت عزمي على ألا أعود أبداً لأمي والثرثار. سأتوغل بعيداً في الغابة الرهيبة، وأجد بعض الأشجار لنفسي حتى آوي إليها.

بالنسبة للطعام، فقد كنتَ أعرف كيف أجده. ففي السنة الأخيرة على الأقل لم أكن مديناً لوالدتي بطعامي. لم تزودني بأكثر من الحماية والتوجيه.

زحفت بهدوء عبر الشجيرات. عدت بنظري إلى الوراء فرأيتُ الثرثار لا زال يهتف ويتأرجح. ولم يكن ذلك مشهداً ساراً. كنتُ أعرف جيداً كيف أتوخى الحذر، وكنت حذراً للغاية في رحلتي الأولى في العالم.

لم أفكر في وجهتي. ولم يكن عندي سوى غرض واحد، وهو أنْ أذهب بعيداً عن متناول الثرثار. تسلقت الأشجار وتجولت بينها لساعات، أنتقل من شجرة إلى أخرى، دون أن ألمس الأرض. لكنني لمْ أمض في اتجاه واحد، ولم أكن دائم الترحال. كانت تلك طبيعتي، كما هي طبيعة قومي كلهم، فنحن نفتقر للمنطق. علاوة على ذلك، فقد كنت مجرد طفل، وقد توقفت كثيراً للعب على أي حال.

الأحداث التي حلت بي بعد مغادرتي للمنزل يكتنفها الغموض في ذهني. إذ لا تغطيها أحلامي، لقد تم نسيان الكثير من الأحداث بالفعل، وخاصة من هذهِ الفترة. كما لم أتمكن من ترتيب الأحلام المختلفة لسد الفجوة بيني وبين مغادرة منزل الشجرة، ووصولي إلى الكهوف.

أتذكر أنني وصلت لفضاءات مكشوفة بلا أشجار عدة مرات. وقد عبرت تلك المساحات بخوف كبير، بالنزول من على الأشجار والركض بأقصى سرعتي. أتذكر مرور أيام ممطرة وأخرى كانت مشمسة، لذا لابد أنني تجولت وحيداً لوقت طويل. أتذكر على وجه الخصوص بؤسي في المطر، ومعاناتي من الجوع وكيف كنتُ أتجاوزه.

واحدة من الصورة المنطبعة في الذهن هو مشهد صيد السحالي الصغيرة على المرتفع الصخري لربوة مفتوحة. تراكضت السحالي لتختبئ تحت الصخور وهرب معظمها؛ لكنني في آخر الأمر رفعت حجراً وأمسكت واحدة منها والتهمتها.

كنت مذعوراً من تلك الربوة بسبب الأفاعي. مع أنها لم تطاردني بل كانت بالكاد تستدفئ على صخرة مسطحة في الشمس. ولكن بسبب خوفي المتوارث كنتُ أهرب بسرعة ما إن ألمحها، كما لو كانت تطاردني بالفعل.

ثم قضمت لحاء مراً من الأشجار الصغيرة. أتذكر بشكل غير واضح تناولي الكثير من المكسرات الخضراء، كانت لا تزال غير ناضجة، قشرها لم يتصلب ونواتها حليبية القوام. وأتذكر على نحو واضح ألم المعدة الرهيب الذي عانيته. ربما تسببت لي المكسرات الخضراء بذلك، أو قد يكون ناتجاً عن أكل السحالي. أنا لا أعرف. ما أعرفه حقاً انني كنتُ محظوظاً إذ لم يتم افتراسي بينما كنتُ منطرحاً على الأرض أتلوى من شدة الألم لعدة ساعات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

كانت رؤيتي للمشهد مباغتة، فما إن خرجت من الغابة. حتى وجدتُ نفسي على حافة فضاء مفتوح واسع. على جانب من هذا المساحة المكشوفة بلا أشجار ارتفع منحدر عالٍ. وعلى الجانب الآخر رأيتُ النهر. كان الجرف الترابي للنهر ينحدر بشدة باتجاه الماء، لكن أجزاء من الأرض تظهر هنا وهناك في بعض الأماكن. كانت تلك ممرات الركض إلى مدارج الشرب للقوم الذين عاشوا في الكهوف.

وكان هذا هو مكان الإقامة الدائمة لقوم الكهوف الذين كنا نصادفهم أحياناً. كان ذلك المكان، إذا جاز لي تمطيط الكلمة، القرية. أمي والثرثار وأنا، والقليل من الأشخاص البسطاء يمكن أن نُسمى سكان الضواحي. كنا جزء من القطيع، دون أن نشاركهم السكن في الكهوف.

صحيح أننا عشنا على مسافة منهم، إلا أنها لم تكن سوى مسافة قليلة. وصحيح أن الرحلة استغرقتني أسبوعاً من التجوال حتى وصلت إلى الكهوف. إلا أنني لو توجهت لها مباشرة لكانت ساعة واحدة كافية لي.

بالعودة إلى المشهد، ما إن رأيت الكهوف على المنحدر من عند حافة الغابة، ورأيتُ الفضاء المكشوف، وممرات الركض إلى مدارج الشرب. ولمحت بنظري العديد من القوم وهم يجتمعون في العراء. كنتُ أحدق بهم، أنا الطفل الذي عشت لوحدي أسبوعاً كاملاً. لم أر طوال ذلك الوقت، أي فرد من قومي. وقد عشتُ لذلك في رعب وآسى تفترسني الوحدة. والآن وعند مرأى قوم من نوعي، تغلب عليّ الحبور، فركضت بسرعة باتجاههم.

وعندها حدث لي أغرب شيء. فما إن لمحني القوم حتى أطلقَ أحدهم صرخة تحذير. وعلى الفور، فر القوم حتى آخرهم متصايحين بخوف وفزع. صاروا يقفزون ويتسلقون الصخور، وقد تعلقوا بمداخل الكهوف واختفوا..

ذهبوا كلهم خلا واحداً منهم تخلف عنهم، كان طفلاً صغيراً وقد سقط من والدته في الهياج بالقرب من قاعدة المنحدر. كان ينتحب بغباء. خرجت أمه، فوثب لملاقاتها وتمسك بها بشدة بينما كانت تتسلق عائدة إلى الكهف.

صرتُ وحيداً تماماً. وقد أصبح الفضاء المفتوح الذي كان قبل قليل مكتظاً بالسكان مهجوراً فجأة. جلست يائساً وانتحبت. لم يكن بوسعي الفهم.

لم هرب القوم مني؟ بعد أن تسنى لي معرفة طريقتهم في العيش، تمكنت من فهم ما حدث في يومها. فعندما رأوني منطلقاً من الغابة بسرعة قصوى ظنوا أنني كنتُ مطارداً من قبل بعض الحيوانات المفترسة. لقد أثرت ذعرهم وأنا أحلّ عليهم بغتة مفتقراً للكياسة.

وما إن جلست وراقبت أفواه الكهوف حتى صرت على دراية بأن القوم يراقبونني. سرعان ما صاروا يمدون رؤوسهم. بعد برهة قصيرة من ذلك صاروا ينادون على بعضهم البعض. إذ أن العجلة والارتباك جعلت من بعضهم يلتجئ لكهف غير كهفه. بعض الصغار لجأوا إلى كهوف أخرى. لم تنادهم الأمهات بأسمائهم فهذا اختراع لم يبتكر بعد. كانوا كلهم بلا أسماء. لكن الأمهات كنْ يتلفظن بصرخات مهتاجة وقلقة،

وكان الصغار يميزونها. وهكذا فلو آن أمي نادت عليّ، لكنتَ ميزت صوتها من بين أصوات ألف أم، ولكانت ميزتتي بنفس الطريقة بين ألف طفل.

استمرت تلك الصيحات مراراً وتكراراً لبعض الوقت، لكنهم كانوا أكثر حذراً من المجازفة بالخروج من كهوفهم والنزول إلى الأرض.

وأخيراً نزل أحدهم. ذلك الذي كان مقدراً له أن يلعب دوراً كبيراً في حياتي، وهو بكل حال، قد لعب بالفعل دوراً كبيراً في حيوات كل أعضاء القطيع. وهو من سوف أطلق عليه أسم العين الحمراء، في صفحات هذا السِفر. وأدعوه كذلك بسبب عينيه الملتهبتين، إذ لطالما كانت أجفانه محمرة، وكانت هذهِ الأجفان تترك أثراً غريباً في النفوس، كما لو أنها تُنذر الناس بوحشيته الفظيعة، لقد كانت روحه، روح قاتل دموي، حمراء مثل أجفانه.

لقد كان وحشاً بكل المقاييس. فمن الناحية الفسلجية كان عملاقاً. ولابد أن يكون وزنه قد فاق المائة والسبعين رطلاً. كان أضخم من رأيتهم من نوعنا. ولم أر حتى في قوم النار ولا من قوم الأشجار من كان بضخامته.

يحدث في بعض الأحيان، أن أمرّ أثناء تصفحي للجرائد على وصف ملاكمي عصرنا وأبطال الحلبة المعاصرين، ويخطر لي أن اسأل يا ترى هل لدى أحدهم فرصة ولو ضئيلة أمام العين الحمراء، فيما لو قدر له مواجهة العين الحمراء. أخشى أن لا فرصة لأي أحد أمامه. ذلك أن بوسعه وبقبضة واحدة من أصابعه الحديدية أن يجذب أعتى الأبطال فيقتلع عضلة كالعضلة ذات الرأسين من عروقها ويفصلها عن باقي الجسد. وإذا ما هوت قبضته على رأس فسيحطم بقبضته الجماجم مثل قشرة بيض. حتى أن بوسعه بقر أمعائهم بركلة واحدة من قدمه الشيطانية (أو يديه الخلفيتين). وهو قادر على كسر الأعناق بثنية واحدة من لدنه، وأنا أدري أن بمقدوره الإطباق بفكه على رقبة ما، فتُمزق أسنانه الأوردة الضخمة للحنجرة من الأمام حتى تصل إلى النخاع الشوكي من الخلف.

وبوسعه هو جالس أن يثبَ من موضعه فيقفز عشرين قدماً باتجاه أفقي. كان غزير الشعر بشكل مقزز. بينما كنا نتفاخر بيننا بقلة الشعر. أما هو فقد كان مغطى بالشعر بالكامل. ينتشر الشعر على باطن ذراعه كما على ظهرها، بل تجده يمتد حتى أذنيه. الأماكن الوحيدة التي لم تكن مغطاة بالشعر عنده هي راحتا يديه وقدميه وتحت عينيه. كان قبيحاً بصورة مرعبة. وتكشيرة فمه الشرس وشفته السفلى المتدلية بشكل كبير ينسجمان مع عينيه الرهيبتين.

ذلك هو العين الحمراء، وقد زحف بحذر شديد خارج كهفه واتجه إلى الأرض، متجاهلاً إياي، ثم مضى مستطلعاً ما يجري.

انحنى إلى الأمام من عند الورك وهو يمشي، وكم كان انحناؤه عظيماً، وكم كانت ذراعاه طويلتين، حتى أن مفاصل يديه كانت تلامس الأرض على جانبيه مع كل خطوة. لقد كانت طريقته في المشي شبه المنتصب خرقاء، وقد كان في الواقع يلامس الأرض بمفاصل يديه ليوازن نفسه. لكن آه، اصغ إليّ، لقد كان بوسعه الركض على أربع! وهذا الأمر بالذات كنا لا نجيده نحن إلا بشكل أخرق. كان من النادر لفرد منا أن يوازن نفسه على مفاصل يديه بينما يسير. وما كان يفعل ذلك إلا من كان متقهقراً إلى الأصل، وكان العين الحمراء مرتداً بشكل كبير إلى الأصل.

هذا ما كان عليه انتكاسة راجعة. كنا في طور التغيير من حياتنا على الشجر لنبدأ بالحياة على الأرض، كنا نمر بهذا التغيير لأجيال عديدة، وقد تغيرت أجسادنا ووضعيتها. لكن العين الحمراء كان ارتداداً للأشكال الأكثر بدائية من ساكني الأشجار. إلا أنه ولد في قومنا فقد بقي بينهم؛ أما الواقع فيحتم أن لا يكون هذا مكانه.

بحذر ويقظة تامة أنتقل هنا وهناك حول الفضاء المكشوف، وهو ينظر عبر الأشجار ليقتفي بنظره آثر الحيوان المفترس الذي ظنوا جميعاً أنه كان يطاردني. وبينما فعل ذلك، دون أن يلقي لي بالاً، تجمع القوم عند أفواه الكهوف وتفرجوا.

في النهاية قرر أن ما من خطر يترصد بهم كما يبدو. كان عائداً من أعلى ممرات الركض، حيث هبط بنظرة سريعة على مدارج الشرب. مشى قريباً مني، دون أن ينتبه إليّ. فقد مضى في طريقه حتى جانبني بشكل عرضي، عندها وبلا تحذير وبخفة مذهلة لطمني على رأسي. تراجعت من قوة صفعته لاثنتي عشرة قدماً كاملة إلى الخلف قبل أن أقع أرضاً، وأذكر أنني كنت ذهلت من المفاجأة، وقد أذهلني في مصابي ذلك سماع الضجة العنيفة التي تمثلت بالضحك والصياح المنطلق من الكهوف. كانت مزحة عظيمة ــ في يومها على الأقل ــ وقد قدرها القوم من صميم قلوبهم.

وهكذا استقبلني الحشد، ولم يلق لي العين الحمراء انتباهاً أكثر، وكنت في مطلق الحرية بالنحيب والنشيج بمكنون قلبي. بضعة أمهات اجتمعن حولي بفضول، وقد ميزتهن. كنتُ قد احتككت بهن في السنة الماضية عندما أخذتني أمي إلى أودية البندق.

لكن سرعان ما تركنني وحدي، وحل محلهن عشرات من الصغار الفضوليين والمزعجين. لقد شكلوا حلقة حولي، مشيرين إليّ بأصابعهم، متفننين في التلاعب بملامحهم، نكزوني وقرصوني. كنتُ مرعوباً، وتحملتهم لبعض الوقت ثم أشتد بي الغضب وهجمت بأسناني وأظافري على أكثرهم جرأة، وهو لم يكن سوى مسترخي الأذن نفسه. ولقد أسميته كذلك لأن لم يكن بوسعه تحريك كلتا أذنيه، كانت له أذن تنتصب وتتحرك. أما الأذن الأخرى فقد كانت ثابتة دائماً، مُعلقة في مكانها بلا حركة. كان قد تعرض لحادث تسبب في إصابة عضلاتها وحرمانه من استخدامها.

اشتبك معي، ومضينا في العراك أمام الجميع في شجار مثل أي زوج من الصبية الصغار. تبادلنا الخدش والعض، وجر الشعر، وتلاوينا وقذفنا بعضنا البعض أرضاً. أتذكر أنني نجحت في الانقضاض عليه في وضعية كانت تعرف في أيام دراستي الجامعية بوضعية نصف هيلسون([6]) أعطاني هذا الوضع الأفضلية عليه. إلا أنني لم استمتع بها طويلاً. فقد قام بطي ساق واحدة وضربني بالقدم الأخرى (أو الذراع الخلفية) بضربة غاية في الوحشية كادت تسبب بقر امعائي. فكان عليّ تحريره من قبضتي حتى أنجو بنفسي. ثم عدنا للعراك مجدداً.

كان مسترخي الأذن أكبر مني بسنة، إلا أنني كنتُ أشد غضبة منه بعدة مرات. وفي النهاية نكص على عقبيه، ولاحقته عبر الفضاء المكشوف ثم إلى أسفل ممرات الركض إلى النهر. لكنه كان على دراية أفضل بالموقع وركض على طول حواف المياه من مكان إلى آخر. انحرف عبر الفضاء المكشوف واندفع إلى كهف واسع المدخل فتبعته. وقبل أن أعرف ما يحدث كنتُ قد غرقت في الظلام وراءه.

في اللحظة التالية تلبسني رعب فظيع. لم يسبق لي الدخول في كهف من قبل فبدأت بالبكاء والعويل. سخر مسترخي الأذن مني مصفراً، ووثب عليّ دون أن أراه، واسقطني أرضاً. مع ذلكَ لم يخاطر بنزال ثانٍ معي، ونأى بنفسه بعيداً. كنت بينه وبين المدخل ولم يجتزني؛ مع هذا بدا أنه قد ابتعد. أصغيت السمع لكن لم أعثر على إشارة تعرفني بمكانه. حيرني ذلك، لذا عاودت الخروج فجلست وراقبت.

لم يخرج من المدخل أبداً، هذا ما كنتُ واثقاً منه؛ مع هذا وبعد بضعة دقائق وجدته يضحك عند مرفقي. مرة أخرى طاردته، وهرب مني إلى الكهف من جديد؛ لكنني توقفت هذهِ المرة عند فوهة الكهف. تراجعتُ لمسافة قصيرة وراقبت. لم يخرج، حتى قهقه عند مرفقي مرة أخرى، تماماً كالسابق، وللمرة الثالثة تسابقنا إلى الكهف. تكرر هذا المشهد عدة مرات، وقد بحثت عنه عبثاً. كنتُ فضولياً، لم أستطع أن أفهم كيف هرب مني. كان يعاود الدخول إلى الكهف في كل مرة، ولا أراه خارجاً منه ثم يحل عند مرفقي ساخراً مني. وهكذا تحول شجارنا إلى لعبة غميضة.

قضينا طوال الظهيرة في تلك اللعبة مع فواصل زمنية من حين إلى آخر، واصلنا الأمر ونشأ بيننا روح ود وَمرح.

توقف في النهاية عن الهرب مني، وجلسنا سوياً يحيط كلانا الآخر بذراعه. ثم كان أن قام بعدها باطلاعي على سر الكهف واسع الفوهة. أمسك بيدي وقادني إلى الداخل. فرأيت كيف كان الكهف متصلاً بواسطة شق ضيق بكهف آخر، ومن خلال الأخير خرجنا كي نتنفس الصعداء في الهواء الطلق.

صرنا الآن صديقين طيبين، وعندما تجمع الأولاد الآخرون مرة ثانية حولي وأرادوا أن يضايقوني انضم إلي في مهاجمتهم، وكنا شرسين معهم حتى أنه لم يمض وقت طويل حتى تركونا لشأننا.

جعلني مسترخي الأذن على دراية بالقرية. كان هناك القليل مما كان يمكن أن يقوله لي عن الشروط والعادات، إذ لم تكن لديه المفردات اللازمة؛ ولكن من خلال مراقبة أفعاله تعلمت الكثير، وقد أراني كذلك الكثير من الأماكن والأشياء.

قادني إلى الفضاء المكشوف بين الكهوف والنهر وقادني إلى الغابة في الخلف، حيث تناولنا في مكان عشبي بين الأشجار وجبة من جذور الجزر. وبعد أن شربنا من النهر بدأنا في الركض إلى الكهوف مجدداً.

وعند ممرات الركض صادفنا العين الحمراء مرة أخرى. لاحظتُ أول الأمر انكماش مسترخي الأذن إلى جانب واحد ووجدته يطأطئ رأسه وتسكن حركته عند الجرف. وقلدته بطبيعة الحال بشكل لا إرادي. ثم نظرتُ أتحرى عن سبب خوفه. كان العين الحمراء، يتبختر إلى وسط ممرات الركض، ويحدق بضراوة بعينيه الملتهبتين. لاحظت أن كل الصغار تقلصوا مثلما فعلنا. بينما راقبه البالغون بأعين حذرة عندما اقترب منهم، وتنحوا جانباً ليفسحوا له عن مركز الممر.

وما إن جاء الغسق، حتى صار الفضاء المكشوف فارغاً، كان القوم ينشدون الأمان في الكهوف. قاد مسترخي الأذن الطريق إلى مكان مبيتنا. ارتقى الجرف، حتى وصلنا إلى مكان أعلى من أي كهف آخر حيث ظهر شق صغير لا يمكن رؤيته من على الأرض. حشر مسترخي الأذن نفسه فيه. وتبعته بصعوبة، كان المدخل ضيقاً للغاية ووجدت نفسي في غرفة حجرية صغيرة. كان سقفها منخفضاً للغاية لا يعدو

ذراعين في ارتفاعه، وربما كانت الحجرة لا تصل في عرضها وطولها إلى أكثر من ثلاثة في أربعة أذرع. هناك قضينا الليل في عناق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

رغم أن الصغار الأكثر شجاعة كانوا يلعبون داخل وخارج الكهوف المتسعة الفوهة. إلا أنني تعلمتُ مبكراً أن كهوفاً كتلك كانتْ غير مأهولة. إذ لمْ ينم فيها أي شخص في الليل. وحدها الكهوف ذات الفوهات الضيقة المشابهة للشقوق كان يتم استخدامها، كلما ضاق مدخل الكهف كلما كان ذلك أفضل. ومرد ذلك إلى الخوف من الحيوانات المفترسة التي جعلت الحياة عبئاً علينا في تلك الأيام والليالي.

وقد تعلمت عن فوائد الكهوف الضيقة الفوهة في أول صباح بعد مبيتي مع مسترخي الأذن. ما إن حل ضوء النهار حتى دخل السن القاطع، النمر العجوز إلى الفضاء المفتوح. كان اثنان من القوم هناك بالفعل. فأسرعوا هاربين منه. سواء أكانا ما فعلاه بسب الفزع، أم أن السن القاطع كان قريباً عليهما أكثر مما يجب، فلم يتمكنا من التسلق إلى المنحدر حيث الشقوق، لا أعرف بالضبط، لكنهما على أي حال انطلقا إلى كهف واسع الفوهة، الكهف الذي لعبت فيها أنا ومسترخي الأذن ظهيرة اليوم السابق.

ما من سبيل لمعرفة ما حدث داخل الكهف، لكن من المعقول أن نستنتج أن هذين قد انزلقا إلى الشق الذي يصله بالكهف الآخر. وقد كان هذا الشق أصغر من أن يمر بهِ السن القاطع، فخرج من حيث أتى، غاضباً دون أن يُرضي حاجته.

كان من الواضح أن محاولته للصيد في الليل لم تنجح، وكان يتوقع أن يتخذ منهما وجبة له. وقد التقط نظره هذين الاثنين خارج الكهوف فأنقض عليهما. وقد انسلا منه بالطبع عبر الممرات إلى الكهف الأول. أنشأ غاضباً يزأر.

اندلع الهرج بين البقية منا. من أسفل المنحدر حتى أعلاه، تجمهر الجميع في الشقوق والحواف الخارجية، كنا نثرثر ونصرخ بالكثير من الأصوات. وكنا نبتكر بوجوهنا تعابير غاضبة، كان هذا غريزة فينا. وقد كنا غاضبين مثل غضب السن القاطع، مع أن غضبنا كان مشوباً بالخوف. أتذكر أنني كنتُ من بين أفضل من كانوا يزمجرون ويبتكرون الوجوه الغاضبة. ولم يكن السبب في ذلك رغبتي في أن أكون قدوة لغيري، لكنني شعرت بالحاجة تنبع من داخلي لأفعل مثلما يفعلون. كان شعري منتصباً وكنتُ متشنجاً بغضب شديد غير معقول. لبعض الوقت.

واصل السن القاطع العجوز اندفاعه داخل وخارج الكهف الأول تارة، والكهف الثاني تارة أخرى. لكنهما كان يتسللان ذهاباً وإياباً عبر الشق المتصل ويراوغانه. في هذهِ الأثناء كان بقيتنا قد باشروا بالعمل، كنا نرشقه بالحجارة في كل مرة يخرج فيها خارج الكهف. في البدء كنا نسقط الحجارة عليه فقط، لكن سرعان ما بدأنا نصوبها بقوة إضافية من عضلاتنا.

لفت هذا القصف انتباه السن القاطع إلينا مما جعله أكثر غضباً من ذي قبل. وقد تخلى عن سعيه للقبض عليهما واندفع إلى المنحدر باتجاه بقيتنا، متسلقاً على الصخور المتكسرة وهو يزأر في طريقه. عند هذا المنظر المريع، التجأنا إلى داخل كهوفنا حتى آخر فرد فينا. أعرف ذلك لأنني حدقت بسرعة قبل أن أدخل كهفي ورأيت جانباً كاملاً من المنحدر وهو مهجور، باستثناء السن القاطع الذي فقد موضع قدمه وكان ينزلق ويسقط.

اطلقتَ صيحة تشجيع، ومرة أخرى غطى المنحدر الحشد الصارخ وصارتْ الحجارة تسقط أسرع من ذي قبل. كان السنّ القاطع محموماً بالغضب. وقد انقض على المنحدر مراراً وتكراراً. حتى تمكن في إحدى المرات من الوصول إلى مدخل أول شق، لكنه لم يتمكن من شق طريقه إلى الداخل. ومع كل اندفاع غاضب قام به، كانت موجات الخوف تسيطر علينا.

في البدء كان أغلبنا يندفع إلى الداخل مع هذهِ الهجمات، لكن البعض كانوا يبقون خارجاً ليمطروه بالحجارة. وسرعان ما رابطنا جميعاً عند مخارج كهوفنا، وحافظنا على استمرار الحجارة.

لم يحدث قبلاً أن كائناً بهذهِ القوة قد تعرض لمثل هذا الأذى. لقد جرح ذلك كبريائه بشكل عظيم. أن يتغلب عليه قوم صغار، على هذا القدر من الضعف. وقف على الأرض ونظر إلينا مزمجراً وهو يزأر على الصخور التي كانت تتحطم بالقرب منه. وفي مرة قمت بتسديد حجر صوبه، ورفع هو رأسه إلى الأعلى في اللحظة المناسبة تماماً، فأصابه الحجر أسفل أنفه، فقفز مباشرة، حتى صارت قوائمه الأربع في الهواء، وهو يزأر ويموء متألماً ومندهشاً.

لقد تمت هزيمته وهو يعرف ذلك. استجمع كرامته، التي دُفنت رسمياً تحت وابل الحجارة. ووقف في وسط الفضاء المكشوف ورفع رأسه وهو ينظر إلينا بحزن وجوع. لقد كره أن يتنازل عن وجبة، وكنا وجبة لحم كبيرة، لكنه لحم بعيد المنال. جعلنا منظره نضحك. ضحكنا بسخرية وعنف. والحيوانات تكره السخرية وتنفجر غضباً منها.

وهكذا حل ضحكنا ثقيلاً على السن القاطع. لذا التف هادراً وهجم على المنحدر مرة أخرى. كان هذا ما أردناه. فقد أصبحت المعركة لعبة، ونلنا متعة عظيمة في رميه بالحجارة.

لكن هذا الهجوم لم يدم طويلاً، فسرعان ما استعاد رجاحة عقله، كما إن قذائفنا صارت بارعة في الأذى. أتذكر بوضوح رؤية عينه منتفخة، متورمة وهي تكاد تنغلق بعد أن أصيبَ بحجر ألقي عليه. أستعيد في ذاكرتي صورته وهو يقف على حافة الغابة إلى حيث تقهقر مهزوماً في آخر المطاف. كان يتطلع إلى الخلف محدقاً فينا. انفرجت شفاهه الغليظة كاشفة منظر أنيابه الضخمة وقد انتصب الوبر على جسده وهو يهز ذيله كالسوط. أعطانا زمجرة أخيرة وتوارى عن المشهد بين الأشجار.

وعندها ارتفعت ثرثرة كبيرة. تدفقنا خارج حفرنا، متفحصين الآثار التي تركتها مخالبه على الصخرة التي تسلقها على المنحدر، ونحن نتكلم في وقت واحد. واحد من الاثنين اللذين علقا في الكهف المزدوج الشق كان لا يزال في سن صغيرة ولم يكتمل بلوغه بعد. بعد أن خرجا من ملجئهما بفخر، يحيط بهما حشد من المعجبين. جاءت والدة الصغير وانهالت عليه بغضب شديد، تلطم أذنيه، وتجره من شعره، وتصرخ في وجهه مثل شيطان.

كانت امرأة ضخمة فارعة الطول، غزيرة الشعر جداً، وكان ضربها العنيف لولدها مبعثاً لسرورنا، ضحكنا بصخب، ممسكين ببعضنا حتى لا نقع من فرط الضحك، وقد تمرغ بعضنا على التراب من شدة الضحك فعلاً.

على الرغم من أننا عشنا عهدا يسيطر عليه الخوف، إلا أن القوم كانوا يحبون الضحك في طبيعتهم. كان لدينا حس الفكاهة. كانت بهجتنا هائلة، لا يقيدها أيما قيد البتة، لم يكن لنا في ضحكنا اعتدال، ما إن نجد موضوعاً للفكاهة حتى ننطلق ضاحكين نكاد نتشنج من فرط إعجابنا، وكنا نجد الطرفة في أبسط وأكثر الأشياء سذاجة. آه، لقد كنا ضحاكين عظماء. بوسعي أن أقول لك ذلك.

الطريقة التي عومل بها السن القاطع كانت الطريقة التي عاملنا بها كل الحيوانات التي غزت القرية. لقد حافظنا على دروبنا ومشاربنا لأنفسنا من خلال جعل الحياة تعيسة للحيوانات التي تتعدى أو تضل على أراضينا.

أفسدنا الأمر حتى على أكثر الحيوانات المفترسة غضباً ولقناها درساً حتى تعلمت الحيوانات أن تترك مساكننا لحالها. لم نكن مقاتلين مثلهم، كنا ماكرين وجبناء وبسبب مكرنا وجبننا وغريزة الخوف المفرطة لدينا، نجونا من تلك البيئة المعادية في العالم الفتيّ.

كان مسترخي الأذن، كما أتصور، أكبر مني بسنة، لم تكن هناك وسيلة ليخبرني بشيء عن ماضيه، إلا أنني لم أر له أماً أبداً، لذا استنتجت أنه يتيم. فبعد كل شيء لم يكن الآباء يحسبون، كان الزواج لا يزال في شكل بدائي، والزوجان لهما طرقهما في التشاجر والانفصال. الإنسان الحديث ومؤسسة الطلاق، تفعل الشيء ذاته بشكل قانوني. لكن لم يكن لدينا قانون. كان العرف هو كل ما نملك، وعرفنا في هذهِ المسألة بالذات كان مختلاً نوعاً ما.

وكما سيظهر السرد لاحقاً، فقد أظهرنا علائمَ للزواج الأحادي، ذلك الذي أعطى القوة والسلطة للقبائل التي احتضنته. لكن على أي حال، فحتى الوقت الذي ولدتُ فيه، لمْ يكن هناك سوى بضعة أزواج مخلصين عاشوا على الأشجار بقرب والدتي. العيش في الحشد المزدحم لم يكن ليُنتج الزواج الأحادي. لهذا السبب، ربما، ذهب الأزواج المخلصون للعيش بمفردهم سوياً ومع هذا فعندما يهلك الرجل أو المرأة أو يلتهمه حيوان مفترس فإن الناجي كان دائماً ما يجد رفيقاً جديداً.

كان هنالك أمر حيرني كثيراً خلال الأيام الأولى من إقامتي بين القوم. كان هناك خوف مجهول لا اسم له، يخيم بثقله على الجميع. بدا أول الأمر مرتبطاً بجهة واحدة دون غيرها كان القوم كلهم خائفين منها، وهي جهة الشمال الشرقي. لقد عاشوا بتخوف دائم من هذا الربع من البوصلة. وكان الجميع يحدقون بهذا الاتجاه بشكل مستمر وفي نظرتهم ترقب عظيم ووجل من هذا الاتجاه أكثر من أي اتجاه آخر.

عندما اتجه مسترخي الأذن باتجاه الشمال الشرقي لأكل جذور الجزر التي كانت في أفضل حالاتها في ذلك الموسم. أصبح مرعوباً بشكل غير عادي. كان راضياً بأكل البقايا، والجزر الخشن الكبير وتلك الصغيرة جداً في باقي المواضع، بدلاً من المغامرة لمسافة أبعد بقليل حيث الجزر الذي لم يمسس بعد. كنتُ متحمساً للمغامرة فوبخني بشدة وتشاجر معي. وأفهمني أن في هذهِ الجهة يترصدنا خطر رهيب، لكن ما كان ذلك الخطر الرهيب بالذات، لم تسمح له مفرداته الشحيحة بالتوضيح أكثر.

حصلت على العديد من الوجبات الجيدة بهذا الأسلوب بينما كان يوبخني ويقرعني هاذراً بحنق شديد. لم يكن بوسعي أن أفهم. كنتُ يقظاً للغاية، ولم أستطع رؤية الخطر الذي يتهيبه. راقبت دائماً المسافة بيني وبين أقرب شجرة، وأنا مدرك أن

بوسعي أن آتجه إلى جنة الأمان تلك لو ظهر النحاسي أو السن القاطع العجوز فجأة.

في وقت متأخر من الظهيرة، في القرية، ثارت ضجة كبيرة، والقوم يسيرهم هاجس واحد، ألا وهو الخوف، تجمع القوم على جانب المنحدر، وكلهم يحدقون في نقطة ما في الشمال الشرقي. لم أعرف ما كان ذلك، لكنني ركضت مسرعا إلى بر الأمان، إلى حيث كهفي الصغير المرتفع قبل أن أنظر إلى الخلف وأرى.
وهناك عبر النهر، بعيداً عبر الشمال الشرقي، رأيت للمرة الأولى أعجوبة الدخان. كان ذلك أكبر حيوان رأيته في حياتي. اعتقدتُ أنه أفعى جبارة ترتفع بين الأشجار وتتمايل ذهاباً وإياباً. ومع هذا بدا لي من سلوك القوم أن الدخان لم يكن هو الخطر بذاته. بدا أنهم يخشونه كرمز لشيء ما. ماهو ذلك الشيء الذي يرعبهم، لم أكن قادراً على التخمين. ولم يكن بوسعهم إخباري. ومع ذلك فقد كنتُ على وشك معرفة شيء أفظع من النحاسي ومن السن القاطع العجوز، ومن الأفاعي نفسها، والتي كنتُ حتى ذلك الوقت أعتقد أن ما من شيء أفظع منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

كان السن المكسور واحداً من الأطفال الذين عاشوا بمفردهم. عاشت أمه في الكهوف وبعد أن ولدَ لها طفلان بعده، قُذف بهِ ليعتمد في عيشه على نفسه. كنا شهوداً على ما حدث في الأيام التي تلت ذلك، ولم يكن منظراً مبهجاً للعين. لم يرغب السن المكسور بالرحيل، وكلما غادرت والدته الكهف كان يتسلل عائداً إليه. وعندما عادت ووجدته هناك آخر مرة، غضبت غضباً لا يسر الناظر إلا بالنسبة لباقي القوم الذين كانوا قد اعتادوا مشاهدة لحظات كتلك. من داخل الكهف انطلقت أول الأمر في توبيخها وصراخها عليه. ثم صار بوسعنا سماع أصوات الضرب الذي انهمرت بهِ على السن المكسور. وحينذاك انضم الصغيران إلى الجلبة، وأخيراً كما لو كان خارجاً من بركان صغير ركض السن المكسور هارباً من الكهف.

وبعد نهاية بضعة أيام صارت مغادرته الكهف واقعاً لا فكاك منه. انطلق ناحباً بحزن، دون أن يكترث لأمره أحد وهو في وسط الفضاء المكشوف، بكى هناك لنصف ساعة على الأقل، ثم جاء ليعيش معنا أنا ومسترخي الأذن، كان الكهف صغيراً، لكن مع القليل من الضغط كان ثمة مجال لنا نحن الثلاثة. ليست عندي أي ذكرى عن السن المكسور أكثر من تلك الليلة التي قضيناها سوية، لذا لا بد أن يكون الحادث قد وقع على الفور.

حدث ذلك في منتصف اليوم، كنا قد أكلنا وجبة من الجزر ملأت بطوننا في الصباح، ومن بعدها، انغمسنا باللعب بلا غاية، تجرأنا للوصول إلى الأشجار الكبيرة في الخلف. ليس بوسعي فهم كيف تخطى مسترخي الأذن حذره المعتاد، لكن لا بد أن اللعب قد شغله عن حذره. كنا نقضي وقتاً عظيماً باللعب والقفز على الأشجار. ويا لها من قفزات! في الحقيقة كنا نقفز لعشرة أو خمسة عشر قدماً من شجرة إلى أخرى. والأرض تحتنا على بعد عشرين أو خمس وعشرين وما كنا نكترث لذلك. في الحقيقة غالباً ما أكون خائفاً عندما يتوجب عليّ القفز لمسافات كبيرة فكلما كبرنا وأزداد ثقلنا كان علينا أن نكون أكثر حذراً من السقوط. لكن في ذلك العمر كانت أجسادنا خيوطاً وزنبركاً وكان بوسعنا فعل أيّ شيء.

أظهر السن المكسور خفة حركة واضحة في هذهِ اللعبة. وكان أكثر حيوية منا، ولم يجد صعوبة في القيام بقفزات لم نكن لا أنا ولا مسترخي الأذن لنقدر على إتمامها. كي أكون صادقاً، كنا نخاف من المحاولة.

كان السن المكسور يركض إلى نهاية الفرع السامق من شجرة بعينها. ومن نهاية الفرع إلى الأرض، لا بد أن تكون هناك سبعون قدماً، وما من شيء موجود ليخفف صدمة الارتطام بالأرض. كان هناك على بعد عشرين قدماً من الأرض، أيّ على بعد خمسين قدماً من الفرع الذي يقف عليه، يوجد فرع سميك لشجرة أخرى.

وبانسحابنا من الفرع خوفاً من المحاولة، وجدنا مكسور السن في أثرنا وقد بدأ بالتأرجح، أعاق هذا تقدمنا بطبيعة الحال، لكن التأرجح لم يعق تقدمنا فقط، إنما كان السن المكسور في أثناء تأرجحه متحدياً لنا يواجهنا وهو يولي ظهره للقفزة التي كان على وشك القيام بها، وما إن اقتربنا منه حتى سقط من مكانه. كان الفرع المتأرجح أشبه بلوح زنبرك. وقد ألقى بهِ بعيداً للغاية، على ظهره، تشقلب في الهواء أثناء

سقوطه ليواجه فرع الشجرة الأخرى التي سقط عليها. أنحنى الفرع أثر ذلك، كما كان هناك صوت تشقق مرعب لكن الفرع لم ينكسر أبداً، ومن بين الأوراق كنا قادرين دائماً على رؤية وجه السن المكسور يكشر عن أسنانه مبتسماً كالمنتصر.

في المرة الأخيرة التي حاول فيها السن المكسور فعل ذلك. كان قد تمسك بنهاية الفرع وبدأ بالتأرجح، بينما كنتُ أنا من يلاحقه، جاءتنا فجأة صيحة تحذير واطئة من مسترخي الأذن. نظرتُ إلى الأسفل ورأيته عند التفرع الرئيسي للشجرة القريبة من الجذع. انحنيتُ بشكل غريزي إلى الأسفل عند الطرف السميك. توقف السن المكسور عن التأرجح، لكن الفرع لم يتوقف عن التأرجح واستمر جسده بالتمايل صعوداً وهبوطاً مع حفيف الأوراق.

سمعت فرقعة غصين جاف، ونظرت إلى الأسفل ورأيت رجل نار للمرة الأولى. كان يزحف خلسة على الأرض، ويسترق النظر إلى الشجرة. في البدء اعتقدتُ أنني رأيتُ حيواناً برياً، لأنه أرتدى على وسطه وكتفيه قطعة بالية من جلد الدب. ثم رأيتُ يديه وقدميه، وهيئته بشكل أوضح. كان شديد الشبه بنوعنا، إلا أنه كان أقل شعراً وكانت قدماه أقل شبهاً باليد، عكس أقدامنا. في الواقع، كان هو وقومه كما سأعرف لاحقاً أقل شعراً منا، وإن كنا نحن أقل شعراً من قوم الأشجار.

ما إن رأيته حتى خطر لي على الفور أن هذا هو مصدر الرعب في الشمال الشرقي، والذي كان الدخان الغامض يرمز له. مع هذا فقد كنتُ في حيرة من أمري، لم يكن العجوز الضئيل ذا بال ليُخشى. فالعين الحمراء وأيما رجل من رجالنا الأقوياء كانوا أكثر من مجرد أنداد له. لقد كان شيخاً كبيراً، ذابلاً لكبر سنه، وقد صار شعر وجهه رمادياً، ثم أنه يعرج عرجاً شديداً بإحدى رجليه. لم يكن هناك أدنى شك بأن بوسعنا أن نسبقه بالركض أو التسلق. ولن يكون قادراً على اللحاق بنا أبداً.

لكنه حمل في يديه شيئاً كنتُ أراه للمرة الأولى. ذلك كان القوس والسهم. لكن لم يكونا ليحملا أي معنى عندي في حينها. كيف لي أن أعرف أن الموت كامن في هذهِ القطعة المحنية من الخشب؟ إلا أن مسترخي الأذن عرفها وعرف شرها. كان قد رأى قوم النار بلا ريب من قبل وعرف أساليبهم. رفع رجل النار نظره إلى السن المكسور ودار حول الشجرة وحول الجذع الرئيسي عند ملتقى الأغصان ودار مسترخي الأذن أيضاً، محافظاً دائماً على وجود الجذع بينه وبين رجل النار.

عكس الأخير دورته بسرعة خاطفة. باغت ذلك مسترخي الأذن لكنه تمسك بحذره ودار بسرعة إلى الجهة المعاكسة، ومع هذا لم يتمكن من الفوز بحماية الجذع حتى وتر رجل النار قوسه. رأيت السهم يقفز، مخطئاً مسترخي الأذن، لامس السهم طرفاً من الغصن وعاد ليسقط على الأرض. رقصت من مكاني المرتفع بسعادة. لقد كانت لعبة! كان رجل النار يرمي أشياء على مسترخي الأذن مثلما نرمي نحن الأشياء على بعضنا البعض.

استمرت اللعبة لفترة أطول قليلاً، لكن مسترخي الأذن لم يكشف نفسه ثانية. ثم أعرض رجل النار عنه. انحنيت إليه من فرعي السامق وثرثرت معه. أردت اللعب، وأردتُ منه أن يحاول ضربي بالشيء الذي معه. وقد رآني لكنه تجاهلني،

محولا انتباهه إلى السن المكسور، والذي كان لا يزال يتأرجح قليلا رغما عنه عند نهاية الفرع المهتز.

ارتفع أول الأسهم. فصاح السن المكسور صيحة ملؤها الخوف والألم. بان الأمر جلياً عندها. اختلطت الأمور عندي وفقدتُ اهتمامي باللعب، وتكورت مرتجفاً بالقرب من جذعي. ارتفع سهم ثان وثالث مخطئاً السن المكسور، محركاً الأوراق بمروره عبرها، متقوساً في طيرانه وعائداً إلى الأرض.

حضّر رجل النار قوسه مجدداً. وقد غير موقعه، ماشياً بضع خطوات إضافية، ثم غير مكانه مرة ثانية. التوى القوس وقفز السهم إلى الأعلى فصرخ السن المكسور صيحة رهيبة، رأيته يسقط من الفرع، متقلباً عدة مرات، وجسده يتلوى. كان رأس السهم يبرز من صدره ثم يختفي مع كل ثورة من جسده. هبط صارخاً، وسقط لمسافة سبعين قدماً مرتطماً على الأرض بضربة لها صداها. تحرك جسده قليلاً، واستقر مرة أخرى. من الواضح أنه لا يزال حياً، لأنه تحرك وتلوى وهو يخمش بيديه وقدميه. أتذكر كيف ركض رجل النار صوبه محطماً رأسه بصخرة.. ولا أتذكر شيئاً بعدها.

لطالما استيقظت في طفولتي على هذهِ المرحلة من الحلم صارخاً برعب لأجد أمي أو المربية تحدقان بي في قلق، تمر أياديهن الناعمة على شعري ليخبرنني أنهن معي ها هنا، وما من شيء يستدعي الخوف.

حلمي التالي حسب الترتيب، يبدأ بهربي أنا ومسترخي الأذن عبر الغابة. اختفت تراجيديا رجل النار والسن المكسور. كنتُ ومسترخي الأذن نركض في هلع حذر نُسرع عبر الأشجار وفي قدمي اليمنى ألم حارق؛ ورأس ناتئ يظهر من الجانب الآخر، لقد كان سهماً لرجل النار. ولم يكن الشد والضغط عليها ما يسبب لي ذلك الألم الشديد فحسب، لكن أيما حركة كانت تؤذيني مما جعل مستحيلاً عليّ متابعة مسترخي الأذن.

في الختام استسلمتُ راكعاً عند تفرع شجرة آمن. انطلق مسترخي الأذن إلى الأمام، وناديته بصوت غاية في الحزن، أتذكر أنه توقف ونظر إلى الخلف. ثم عاد إليّ، متسلقاً تفرع الشجر وفاحصاً السهم، حاول أن يسحبه. لكن اللحم كان يقاوم سحب الحديد من جهة ومن جهة أخرى كان يقاوم أي حركة أقوم بها. لقد كان مؤلماً بشكل مفجع، فأوقفته.

تكورنا هناك لبعض الوقت. كان مسترخي الأذن عصبياً وقلقاً وراغباً بأن يستمر بالهرب، يتطلع باستمرار ويحدق في هذا الطريق أو ذاك، وأنا أنتحب بهدوء وأنشج. لقد كان مرتاعاً بشكل واضح، لكنه أصر مع ذلك على البقاء بجانبي، رغم خوفه، وأنا أعتبر أن تلك إشارة للإيثار والرفقة التي ساعدت في سمو الإنسان على الحيوانات.

مرة أخرى حاول مسترخي الأذن جر السهم وسحبه من الجسد، فأوقفته بغضب. ثم أنحنى وبدأ يقضم الرمح بأسنانه. وبفعله ذلك أمسك الرمح قوياً بكلتا يديه لكيلا يتحرك حول الجرح، وأمسكته له لبعض الوقت. كثيراً ما أتأمل هذا المشهد، نحن الاثنان، صغيران لم ننضج بعد، في طفولة العرق البشري، وكيف كان أحدنا

يسيطر على خوفه، هازما نزعته الأنانية للهرب، في سبيل أن يبقى ويساند الآخر. وتتصاعد أمامي ها هنا كل تلك الصور بهيئة نبوءة لما هو قادم، حتى أرى لمحات من دامون وبيثاس([7]) من طاقم إنقاذ الحياة وممرضي الصليب الأحمر، رؤى عن الشهداء وقادة الأمل اليائس، الأب داميان([8]) والمسيح نفسه، وكل رجال الأرض، من القامات العظام. والذين يمكن تقفي قوتهم إلى مسترخي الأذن والسن والمكسور وغيرهم من المجهولين في العالم القديم.

عندما مضغ مسترخي الأذن رأس السهم، أنسحب بقيته بسهولة كافية. كنتُ أريدُ المضي على الفور، لكن ما أوقفني هذهِ المرة. كانت ساقي التي صارت تنزف بغزارة. مما لا شك فيه أن بعض الأوردة الصغيرة قد تمزقت، راكضاً إلى نهاية الغصن، جمع مسترخي الأذن حفنة من الأوراق الخضراء ثم قام بحشوها في الجرح. وقد تمت المهمة على أحسن حال، لأن النزيف قد توقف. ثم مضينا سوياً إلى أمان الكهوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

أتذكر بشكل جليّ أول شتاء مر عليّ بعد مغادرتي المنزل. أرى أحلاماً طويلة عن ارتجافي في البرد. كنتُ ومسترخي الأذن نجلسُ متقاربين، وأذرعنا وأرجلنا حول بعضنا البعض. وجوهنا زرقاء من البرد وأسناننا مصطكة. يصير البرد قاصماً بالذات مع اقتراب الصباح. نادراً ما نمنا في تلك الساعات المبكرة القارة، نضم بعضنا في بؤس مُخدر، منتظرين شروق الشمس نطمع بالحصول على شيء من الدفء.

عندما كنا نخرج من كهوفنا، كان الصقيع يتكسر تحت أقدامنا. واكتشفنا في صباح من الصباحات جليداً على سطح المياه الساكنة في الدوامة التي كانت محلاً لشربنا، وكان هناك تساؤل كبير عما يمكن فعله بشأن ذلك. كان نخع العظام العجوز أكبر أعضاء القطيع، ولم يسبق له أبداً أن رأى شيئاً كذلك من قبل. أتذكر نظرة القلق البائسة التي حلت على عينيه عندما كان يتفحص الجليد. (تلك النظرة الحزينة كانت في أعيننا عندما لم نستطع فهم شيء، أو عندما نكون فريسة لرغبة غامضة لا يمكن التعبير عنها) حتى العين الحمراء عندما تفحص الجليد، بدت نظرته قاتمة وحزينة، وحدق عبر النهر باتجاه الشمال الشرقي، كما لو أنه ربط بين قوم النار وبين تلك الأحداث الأخيرة.

لكننا لم نجد الجليد إلا في صباح ذلك اليوم، وكان ذلكَ الشتاء الأكثر برودة الذي اختبرناه. ليس لدي ذكريات عن شتاء آخر كان فيه الجو بارداً إلى هذا الحد. لقد فكرتُ كثيراً في أن هذا الشتاء البارد ربما كان نذيراً لشتاءات باردة أخرى لا حصر لها ستحل علينا، عندما تحركت قطعة الجليد من أقصى الشمال إلى أعلى وجه الأرض. لكننا لم نر هذهِ القطعة الجليدية أبداً. ستمر عدة أجيال عديدة قبل أن يهاجر نسلنا إلى الجنوب ينشدون الدفء، أو قد يكونون بقوا في مكانهم وكيفوا أنفسهم للظروف المتغيرة. كانت الحياة محض ضربة حظ، وكان الحظ السعيد يرافقنا. لم يكن عندنا الكثير من التخطيط، وما أقل ما تم تنفيذه من تلك الخطط القليلة. أكلنا متى ما جعنا، شربنا متى ما عطشنا، تجنبنا أعداءنا من أكلة اللحوم، أتخذنا من الكهوف مأوى في الليل، أما باقي النهارات فكانت لهواً تاماً طوال الحياة. كنا حذرين للغاية، تستمتع بكل شيء، ولدينا الكثير من الحيل والمقالب، ولم تكن ثمة جدية فينا، ما عدا فيما لو كنا في خطر أو في فورة غضب، وتلك الحالات كانت تُنسى ويتجاوزها الآخرون بسرعة ما إن تنتهي.

كنا غير منطقيين، بلا حس سليم ولا تفكير نقدي. لم يكن عندنا غاية ثابتة، وذلك بالذات هو ما أعطى لقوم النار اليد العليا علينا، إذ تيسرت لهم كل تلك الأشياء التي لم يتيسر لنا إلا القليل منها. مع ذلك، فقد كنا قادرين أحياناً، سيما في عالم العواطف، على الثبات الطويل على ما نكنه من مشاعر. إن الإخلاص الذي أشرتُ إليه لزوج أو زوجة واحدة، قد يفسر على أنه شيء من العادة، لكن رغبتي الطويلة بالسريعة لا يمكن تفسيرها، أكثر مما يمكن تفسير العداوة المستميتة بيني وبين العين الحمراء.

لكن لا منطقيتنا وغباءنا أكثر ما يزعجني بشكل خاص عندما أنظر مرة أخرى إلى تلك الحياة الماضية. رأيت مرة ثمرة يقطين مفتوحة كانت ملقاة على الأرض

تغمرها مياه المطر. كانت المياه حلوة للغاية ـ وشربتها. حتى أنني أخذت اليقطينة إلى مجرى النهر وملأتها بالمزيد من الماء ـ شربت بعضه وصببت بعضه على مسترخي الأذن. ثم رميت اليقطينة جانباً. لم يخطر على بالي أبداً القيام بملء اليقطينة وحملها إلى كهفي مع أنني غالباً ما أكون عطشاً في الليل، خاصة بعد أن اتناول البصل البري وجرجير الماء. ولم يكن هناك من يتجرأ على مغادرة الكهف في الليل للشرب مطلقاً.

وفي مرة أخرى وجدتُ يقطيناً جافاً وبذوره اليابسة تخشخش فيه. استمتعت بهزها لفترة. لكن ذلك كان لعباً. ومع هذا، لم تمر فترة طويلة قبل أن يصير استخدام اليقطين لخزن المياه ممارسة عامة للقطيع. لكنني لم أكن المخترع، كان هذا الشرف يعود لنخع العظام العجوز، ومن العدل افتراض أن عمره الكبير هو ما جلب له فكرة الاختراع.

على أي حال، كان نخع العظام العجوز أول فرد من القطيع يستخدم اليقطين لخزن الماء. وقد مكنه ذلك من إمداد كهفه بالماء على الدوام، الكهف الذي يعود لولده، الأمرد، الذي سمح له بأن يشغل زاوية منه. أعتدنا على رؤية نخع العظام يملأ اليقطين من مدارج الشرب ويحملها بحذر لكهفه. كانت قوة المحاكاة كبيرة لدى القوم، وقلدِه واحد، ثم الآخر فالآخر، تثقب يقطينة وتستخدما بنفس الأسلوب، حتى صارت تلكَ ممارسة عامة للجميع وصرنا نخزن الماء بهذا الشكل.

كان نخع العظام العجوز تصيبه نوبات مرضية أحياناً فلا يكون قادراً على مغادرة الكهف. عندها يقوم الأمرد بملء اليقطينة له. بعد ذلك قام الأمرد بتكليف ذي الشفة الكبيرة، ولده، بهذهِ المهمة. وبعدها عندما كان نخع العظام يعود لصحته مجدداً كان ذو الشفة الكبيرة يستمر بحمل الماء له. كان الرجال لا يحملون أي مياه في العادة إلا في حالات قليلة، ويتركون تلك المهمة للنساء وللأطفال الكبار. أنا ومسترخي الأذن كنا مستقلين. لم نحمل الماء إلا لأنفسنا، وغالباً ما سخرنا من حمالي الماء من الصغار عندما كان يتم استدعاؤهم لترك اللعب وملء اليقطين.

كان التطور بطيئاً عندنا. قضينا حياتنا في اللعب، حتى الكبار كانوا يلعبون مثل لعب الصغار، كنا نعبث مثلما تعبث كل الحيوانات الأخرى. ومعارفنا البسيطة في الحياة، غالباً ما كنا نكتسبها بمحض المصادفة أثناء اللعب ويعود الفضل في ذلك للفضول الذي كان يتملكنا والرغبة في الحصول على التقدير من الآخرين. لذا لم يكن لدينا حس الابتكار وأفضل ما جادت بهِ قريحة القوم خلال الفترة التي عشت فيها معهم هو استخدام اليقطين. في البدء كنا نستخدم اليقطين لخزن الماء فقط نحاكي بذلك صنيع نخع العظام العجوز.

ثم حدث في يوم من الأيام أن قامت إحدى النساء ـ لا أعرف أي واحدة بالضبط ـ بملء اليقطين بالتوت الأسود وحملته إلى كهفها. وفي وقت قصير صارت كل النساء يحملن التوت والمكسرات والجذور النضرة في اليقطين. الفكرة التي بمجرد البدء فيها كان لزاماً لها أن تستمر. اختراع آخر للأوعية المحمولة كان يعود الفضل فيه للنساء. لا شك أن بعض النساء لم يستطعن الحصول على ثمار يقطين كبيرة، أو ربما كانت واحدة منهن قد نسيت أن تأخذ يقطينها معها، فقامت هذهِ المرأة بطي ورقتين كبيرتين سوياً ربطتهما إلى بعضهما بالأغصان، وعادت إلى بيتها وهي تحمل كمية من التوت أكبر مما يمكن أن تحمله أكبر يقطينة.

هذا أقصى ما توصلنا إليه في نقل الامدادات خلال السنوات التي عشتها مع القوم. لم يطرأ على بال أي شخص منا أن ينسج سلة من نبات الصفصاف. كان الرجال والنساء يقومون أحياناً بربط الكروم القوية كحبال حول حزم السرخس والفروع التي يحملونها إلى الكهوف ليصنعوا منها حشية للنوم. ربما بعد عشرة أو عشرين جيلاً تعلم أفراد من سلالتنا كيفية حياكة السلال. وثمة شيء مؤكد أن يكون بعد هذهِ الخطوة فلو قمنا بنسج السلال، فسنتجه بعدها لنسج القماش حتماً. وهكذا سيتم صنع الثياب، ومع ستر العري سيجيء الحياء.

هكذا كان الزخم يتراكم في العالم القديم. لكننا حينذاك في أول الطريق وقد بدأنا للتو، وما كان بمقدورنا أن نمضي أبعد من ذلك خلال جيل واحد. كنا بلا أسلحة، بلا نار، وفي البدايات الساذجة للكلام. كانت الكتابة بعيدة غاية في البعد في المستقبل، بعيدة لدرجة مفزعة عند التفكير في الموضوع.

كنتُ مرة على وشك القيام باختراع عظيم. كي أبين لكَ كم كان التطور في تلك الأيام محض مصادفة، دعني أشرح لك كيف حالت شهوة مسترخي الأذن بيني وبين احتمال أن أكون أول من يبتكر تدجين الكلاب. وهو أمر لم يكن حتى قوم النار الذين يعيشون في الشمال الشرقي قد حققوه بعد. لقد كانوا بلا كلاب؛ وهو ما أعرفه من خلال الملاحظة. لكن دعني أخبرك كيف أن نهم مسترخي الأذن كان السبب في تأخر التطور الاجتماعي لعدة أجيال.

إلى الغرب من كهوفنا كان هناك المستنقع العظيم، وإلى الجنوب منها كانت هناك سلسلة ممتدة منِ التلال الصخرية. كانت تلك واحدة من البقاع التي لا يكاد يتردد عليها أحد، وذلكَ له أسبابه، أولاً وقبل كل شيء، لم يكن هناك أي طعام من النوع الذي نستطيع أنا وأشباهي من الكائنات أن نقتات عليه، وثانياً، لأن تلك التلال الصخرية كانت مخابئ للوحوش المفترسة من آكلي اللحم.

لكن مسترخي الأذن وأنا ضللنا طريقنا في التلال ذات يوم. ولم نكن لنضل لولا أننا كنا نضايق نمراً. من فضلك لا تضحك، لقد كان ذلك النمر هو السن القاطع العجوز نفسه. كنا بمأمن منه بالطبع. صادفناه في الغابة في الصباح الباكر ومن أمان الفروع العلوية التي لذنا بها معتصمين، كنا نجهر بكراهيتنا ومقتنا له. ومن فرع إلى فرع ومن شجرة إلى أخرى، تتبعنا، وتقدمنا عليه بسرعة جهنمية لتحذير جميع سكان الغابة أن السن القاطع العجوز كان قادماً.

أفسدنا صيده بكل المقاييس، وأثرنا غضبه بشكل كبير. صاح بنا وهو يحرك ذيله، وكان يتوقف أحياناً ويحدق بنا ونحن في أعلى الأشجار بهدوء لفترة طويلة، وقد بدا عليه أنه يقلب فكره ليجد الطريقة التي يمكن أن يمسكنا بها. لكننا اكتفينا بالضحك منه ورشقناه بالأغصان وبنهايات الفروع.

كان استفزاز النمر هذا رياضة شائعة بين القوم. كان نصف القوم يخرجون من مكامنهم أحياناً ليسابقوا من أعلى الأشجار نمراً أو أسداً خرج للصيد في وضح النهار. كان هذا انتقامنا، لأن أكثر من فرد من أفراد قطيعنا كان قد أُخذ على حين غرة، ليصير إلى بطن النمر أو الأسد. ومن خلال هذا التعذيب وبث الشعور المخزي بالعجز في نفوسها، كنا نُعلم تلكَ الحيوانات المفترسة أن تبقى بعيدة عن مناطقنا إلى حد ما. وكان ذلك ممتعاً بعد كل شيء. لقد كانت تلكَ لعبة عظيمة عندنا.

وبينما كنا آنا ومسترخي الأذن نطارد السن القاطع عبر ثلاثة أميال في عمق الغابة. وصلنا إلى نهاية الغابة، وما إن وصلنا هناك حتى جعل ذيله بين قدميه وهرب من قبضتنا جباناً مهزوماً مثل جرو مضروب. بذلنا أقصى جهدنا لمجاراته؛ لكن عندما وصلنا إلى حافة الغابة لم يكن هو سوى خط صغير في الأفق.

لا أعرف ما الذي دفعنا إلى التقدم، سوى الفضول، فبعد فترة اللعب تلك، تجولنا أنا ومسترخي الأذن عبر العراء إلى حافة التلال الصخرية. لم نذهب أقصى من ذلك، لم نكن في الغالب لنبتعد مسافة تعدو على المائة ياردة بعيداً عن الأشجار لأي سبب كان. درنا حول الصخور بزاوية حادة (كنا ندور بحذر شديد، لأننا لم نعرف ما قد نواجهه)، حتى وصلنا إلى ثلاثة جراء يلعبون في الشمس.

لم ترَ الجراء مقدمنا، فراقبناهم من بعيد لبعض الوقت، كانوا كلاباً برية، وثمة شق أفقي في الجدار الصخري، من الواضح أن هذا هو المخبأ الذي تركتهم أمهم فيه، المخبأ الذي كان يتعين عليهم البقاء فيه لو كانوا مطيعين. لكن الحياة المتنامية فيّ وفي مسترخي الأذن تلك التي قادتنا إلى المغامرة بعيداً عن الغابة، قادت الجراء خارج الكهف ليمرحوا. أعرف أي عقاب كانت ستعاقبهم والدتهم لو أنها ضبطتهم على هذهِ الحال. لكننا نحن من ضبطناهم. نظر مسترخي الأذن إليّ، ثم اندفعنا نحوهم. لم يجد الجراء أي مكان للهرب إلا المخبأ وسبقناهم إليه. أسرع أحدهم بين ساقي. فقرفصتُ ممسكاً به. عندها غرس أسنانه الصغيرة الحادة في ذراعي فسقط من يدي بتأثير الألم والمباغتة. في اللحظة التالية هرع الجرو إلى داخل المخبأ.

كان مسترخي الأذن لا يزال يكافح مع الجرو الثاني، فقطب جبينه ساخراً مني، وألمح ليّ في أصوات متنوعة الأشكال عن الحمق والخرق الذي كنت عليه. جعلني هذا خجلاً من نفسي وحفز بي الجرأة. أمسكت الجرو الثالث من ذيله. وصلت أسنانه إليّ وغرس أسنانه فيّ مرة أخرى، فقبضت على عنقه. جلسنا أنا ومسترخي الأذن وقد أمسكنا جروين فنظرنا إليهما وشرعنا بالضحك.

كان الجروان يكشران عن أنيابهما ويزمجران ثم أخذا يعويان. فجأة اعتقد مسترخي الأذن أنه سمع شيئاً. فنظرنا إلى بعضنا بخوف، مدركين خطورة موقفنا. كان العبث مع صغار الحيوانات يجعل من تلك الحيوانات شياطين جحيم هائجة. وهؤلاء الجراء الذين أحدثوا جلبة كتلك هم جراء كلاب برية. ونحن نعرف جيداً من هم الكلاب البرية، تلك الكلاب التي تركض في مجاميع، هي مصدر رعب للحيوانات آكلة العشب. شاهدناهم غير مرة وهم يلاحقون قطيعاً من الأغنام والثيران ويسحبون العجول الصغيرة والمسن والمريض من القطعان. حتى نحن طاردتنا الكلاب البرية أكثر من مرة. رأيتُ بأم عيني مرة امرأة من قومنا وهم يطاردونها، ما إن وصلت إلى ملجأ من الغابة حتى وقعت في قبضتهم. لو لم تكن متعبة من الركض، لكان بوسعها الوصول إلى شجرة عالية. لقد حاولت ثم انزلقت وسقطت. فانقضت عليها الكلاب بسرعة.

لم يطل تحديقنا ببعضنا أكثر من لحظة. ركضنا إلى الغابات نحمل صيدنا بكل ما نملك من قوة، وما أن وصلنا إلى شجرة طويلة آمنة حتى مضينا نحمل الجروين نُريد أن نتسلقها وقد عدنا للضحك من جديد.

فكما ترى كنا نضحك بغض النظر عما يحدث. لكن في تلك اللحظة بالذات، بدأت واحدة من أشق المهام علينا. فقد أردنا حمل الجراء حتى نصل إلى كهفنا، إلا أن أيدينا كانت مشغولة بحملنا من الأسرى المراوغين، فلم نستطع تسلق الأشجار. حاولنا في البدء أن نمشي على الأرض، لكن ضبعاً خبيثاً قيد حركتنا، كان رابضاً يترصدنا تحت الشجرة. لقد كان ضبعاً حكيماً.

كانت لدى مسترخي الأذن فكرة. استذكر كيف كنا نربط حزم الأوراق لنقلها للبيت حتى تصير لنا سريراً، قام بقطع عدد من دوال الكروم المتينة، وربط قوائم الجرو ببعضها، ثم استخدم دوال كروم أخرى لربطه حول عنقه، هكذا صار الجرو على ظهره مما حرر يديه وساقيه ليتمكن التسلق. كان مبتهجاً بما صنع ولم ينتظر ريثما انتهي من ربط ساقي الجرو خاصتي. وبدأ التسلق قبلي. كانت هناك معضلة واحدة، وهي أن الجرو لم يبقى متدلياً على ظهر مسترخي الأذن فقط. بل ظل يتأرجح على الجانبين ثم إلى الأمام، كما أن أسنانه لم تكن مربوطة، لذا فما كان منه إلا أن غرس أسنانه في معدة مسترخي الأذن غير المحمية. مما جعله يُطلق صرخة عظيمة، كان على وشك السقوط فتمسك بغصن سميك لإنقاذ نفسه. إذ ذاك أنقطع الحبل حول رقبته، وسقط معها الجرو الذي كانت قوائمه الأربع لا تزال مقيدة. فركض الضبع لتناول وجبة عشائه.

كان مسترخي الأذن مشمئزاً وغاضباً. صاح بالضبع مقرعاً إياه، ثم مضى وحيداً عبر الأشجار. لم يكن لدي سبب واضح يدفعني لحمل الجرو معي إلى الكهف، عدا أنني رغبت بذلك؛ التزمت بمهمتي، وجعلت المهمة أسهل بتطوير فكرة مسترخي الأذن، وهكذا لم يقتصر الأمر عندي على ربط أرجل الجرو، لكنني دفعت عصاً بين فكيه وقيدتما بشكل آمن.

في النهاية وصلت بالجرو إلى المنزل. أتصور أنني كنتُ أكثر إصراراً من معظم القوم، وإلا لما تمكنت من النجاح. ضحكوا مني وهم يرون كيف كنتُ أسحب الجرو إلى كهفي الصغير العالي، لكنني لم أكترث. تكللت جهودي بالنجاح، وهكذا صار الجرو العوبة شغف بها القوم أكثر من أي شيء آخر. كان يتعلم بسرعة، وعندما كنت ألطمه على أذنيه كلما عضني في أثناء لعبي معها، حتى توقف عن محاولة عضي لفترة طويلة بعدها.

كنتُ مأخوذاً به للغاية، فقد كان شيئاً جديداً، ومن خصال قومي أننا نُحب الأشياء الجديدة. وعندما فطنت لكونه يرفض أكل الفواكه والخضار، أمسكت له الطيور والسناجب وصغار الأرانب (كنا نأكل اللحم، كما كنا نأكل الخضار، وقد تكيفنا مسبقاً على إمساك الكائنات الصغيرة) أكل الجرو اللحم وأزدهر بأحسن مما تصورت، لا بد إنني احتفظت به لأكثر من أسبوع. ثم عدت إلى الكهف بعدها حاملاً عشاً مليئاً بطيور الدراج التي فقست لتوها، فوجدت مسترخي الأذن قد قام بقتل الجرو للتو، وشرع يأكل لحمه. وثبت على مسترخي الأذن ـ كان الكهف صغيراً ـ وانقضضنا على بعضنا بالأسنان والأظافر.

ومع هذا الشجار انتهت واحدة من أولى محاولات استئناس الكلاب. سلخنا حفنات من الشعر والجلد عن بعضنا، خدشنا وعضضنا بعضنا البعض. ثم أقلعنا عن ذلك

وتصالحنا وأكلنا الجرو. نيئا؟ نعم نيئا. لم نكن قد اكتشفنا النار بعد. وتطورنا لحيوانات تطهو لا يزال بين طيات الغيب.

الفصل التاسع

كان العين الحمراء ارتكاسة للتطور. فقد كان العنصر الأكثر نشازاً في قطيعنا. كان أكثر بدائية منا. ولم يكن ينتمي إلينا، مع أننا أنفسنا لا نزال بدائيين إذ كنا غير قادرين على بذل جهد تعاوني كبير بما يكفي لقتله أو نبذه بعيداً على الأقل. لكن حتى في مجتمع وحشي فظ بفظاظة تنظيمنا الاجتماعي، كان العين الحمراء أكثر فظاظة وتوحشاً من أن يعيش فيه. إذ كان يميل دائماً لتخريب قطيعنا من خلال أفعاله التي تفتقر للحس الاجتماعي. لقد كان حقاً انتكاسة لنوع أقدم، وكان مكانه مع قوم الأشجار لا معنا نحن الذين كنا في طريقنا لنصبح بشراً.

لم يكن إلا وحشاً مجبولاً على القسوة، وهو قول يخبرك الكثير عن مدى وحشيته عندما تقارنها بوحشية تلك الأيام. كان يضرب زوجاته، هو لم يتخذ أكثر من زوجة في وقت واحد، لكنه تزاوج مرات عديدة، وقد كان من المستحيل لامرأة أن تعيش معه، مع هذا فقد عاشت النساء معه، على مضض مُكرهات. إذ لم يكن ثمة مجال لمخالفته. ولم يكن هناك رجل قوي بما فيه الكفاية ليقف ضده.

غالباً ما تراودني رؤى عن ساعة الهدوء التي تسبق غروب الشمس. كان القوم يأتون من جهة مدارج الشرب ومن حقل الجزر ومستنقع التوت ليجتمعوا في الفضاء المكشوف قبالة الكهوف. ولا يجرؤ أحد منهم على البقاء خارج كهفه بعد هذا الموعد، لأن الظلام الرهيب يقترب، ومع الظلام تبدأ المذبحة التي تقيمها الحيوانات المفترسة، بينما يركض أوائل البشر للاختباء في كهوفهم مرتعدين.

لا يزال لنا مع هذا بضعة دقائق قبل تسلق كهوفنا. نكون في تلك اللحظات متعبين من اللهو طوال اليوم، أصواتنا خافتة، حتى الأشبال، الذين لا يزالون نهمين للمرح والطيش، يلعبون بتؤدة. تهب الرياح من البحر وترتفع الظلال مع آخر آثر للشمس، ثم فجأة تنطلق من كهف العين الحمراء صرخة قوية وأصوات صفعات. ها هو يضرب زوجة له.

في البدء يحل علينا صمت مشوب بالخوف. لكن مع استمرار الصراخ والصفعات ننفجر في هذر مخبول، هو هذر من لا حول له ولا قوة. كان واضحاً أن الرجال مستاؤون من أفعال العين الحمراء لكنهم كانوا غاية في الخوف منه، ثم تتوقف الضربات ويحل محلها أنين منخفض يهبط بالتدريج، وبينما نهذر بيننا، يحل الشفق الحزين.

كنا قوماً ضحاكين، نجد في كل شيء طرفة نضحك منها. لكننا لم نفعل ذلك أبداً بينما كانت تُضرب زوجة من زوجات العين الحمراء، كنا نعرف جيداً أي مأساة هي فيها. وكثيراً ما وجدنا جثة الزوجة الأخيرة مرمية على قاعدة الجرف، وقد ألقى بها من فتحة كهفه بعد موتها. لم يقم العين الحمراء بدفن موتاه قط. فكانت مهمة القوم حمل الجثث بعيداً لئلا تلوث مكان إقامتنا الدائم. كنا عادة ما نرمي من يموت منا في النهر، في مكان بعيد عن أماكن شربنا.

لم يقتل العين الحمراء زوجاته فحسب، لكنه قتلَ آخرين من أجل الحصول عليهن كذلك. عندما كان يرغب بزوجة جديدة ويختار لنفسه زوجة لرجل آخر، يقوم على الفور بقتل ذلك الرجل. رأيت بأم عيني حادثتي قتل من هذا القبيل. وكل القطيع كانوا

على دراية بذلك، لكن لم يكن بيدهم حيلة. فنحن لم نطور بعد أي شكل من أشكال الحكومة فيما بيننا. كانت لدينا أعراف محددة وكنا نثور على أي شقي ينتهك تلك العادات. فمثلاً كانت تتم مهاجمة الشخص الذي يلوث الماء من قبل كل من رأى فعلته، ومن يعطي عمداً إنذاراً خاطئاً كان يتلقى العديد من صفعاتنا. لكن العين الحمراء داس بقدميه على كل عاداتنا، وكنا غاية في الخوف منه لدرجة عدم قدرتنا على القيام بفعل جماعي لمعاقبته على شيء.

حدث في الشتاء السادس الذي قضيته في كهفنا أن مسترخي الأذن وأنا قد كبرنا كثيراً. في البدء كان يكفينا أن نقلص أنفسنا لندخل في مدخل الشق. وكان لهذا فوائده على كل حال فقد منع الكبار من أخذ الكهف منا. وقد كان أكثر الكهوف المرغوبة، إذ كان الأعلى على المنحدر، الأكثر أماناً، وفي الشتاء كان الأصغر والأكثر دفئاً.

ولكي أبينَ لكَ مستوى التطور العقلي لدى القوم، بوسعي أن أُصرح لك أنه كان من البساطة بمكان أن يقوم أي شخص برمينا خارج الكف وتوسيع شق المدخل. إلا أنهم لم يفكروا أبداً بذلك، بل ولم يخطر ذلك لي أو لمسترخي الأذن حتى صارت التوسعة فرضاً إجبارياً علينا بسبب حجمنا المتزايد، وقد حدث هذا لأن الصيف كان طويلاً للغاية في تلك السنة، وازددنا سمنة بسبب التغذية الجيدة.

عملنا على توسعة الشق على نوبات كلما خطر لنا بذلك خاطر. في البدء قمنا بحفر الصخور المنهارة بأصابعنا حتى آلمتنا الأظافر ثم باغتتني فكرة أن أستعمل خشباً لتكسير الصخور، ونجح ذلك بشكل حسن، ولكنه تسبب بمصيبة كذلك. ففي صباح باكر، كنا قد أزلنا عن المدخل كومة من الحجارة، فبدأت برمي الشظايا المتخلفة عن الحفر من فتحة المدخل. في اللحظة التالية تصاعد من الأسفل عواء غاضب. لم تكن بنا حاجة للنظر. عرفنا الصوت جيداً فحسب. لقد سقطت القمامة على رأس العين الحمراء.

جثمنا داخل الكهف في رعب. وبعد دقيقة كان عند المدخل يحدق بعينيه الملتهبتين هائجاً مثل شيطان. لكنه كان ضخماً للغاية. فلم يكن بوسعه الوصول إلينا. انسحب فجأة. وكان هذا مريباً. ففي ضوء ما هو معروف عن طبيعة القوم، كان يجب أن يبقى ويستمر بصب غضبه. تسللت إلى المدخل واسترقت النظر إلى الأسفل. كان بوسعي رؤيته عند بداية المنحدر مجدداً. كان يحمل في إحدى يديه عصا طويلة، قبل أن أتمكن من تفسير خطته كان عائداً إلى المدخل يصوب العصا بوحشية للوصول إلينا. كان يصوب لنا طعنات هائلة. كان بوسعه بقر أمعائنا لولا أن تقلصنا إلى الوراء ملتصقين بجدران الكهف. كنا بالكاد نبتعد عن متناول عصاه. وبضرباته المدمرة كان يصل إلينا مرة تلو الأخرى بضربات بوحشية كانت تسلخ شعرنا وجلدنا. عندما كنا نصرخ من فرط الألم، كان هو يزأر برضا ويزيد من ضرباته.

بدأ الغضب يستبد بي. وقد كنتُ في تلك الأيام عصبياً، وشجاعاً شجاعة جديرة بالتقدير إلى حد ما، وإن كانت شجاعة جرذ محاصر في الزاوية. أمسكت العصا بيدي، لكنه كان من القوة أن سحبني إلى الشق. ووصل إليّ بذراعه الطويلة، ومزق لحمي بأظافره، لكنني قفزت مجدداً هارباً من قبضته وعدت إلى الأمان النسبي لجدران الكهف.

بدأ بلكزنا بالعصا مجددا، ونالتني منه ضربة مؤلمة على الكتف. لم يفعل مسترخي الأذن شيئاً، عدا الارتجاف من الخوف والصياح في كل مرة يتأذى فيها. بحثت عن عصا لأصد بها الضربات وأرد عليها، ولم أجد إلا نهاية فرع عرضه انشاً وطوله قدم. فرميت بالغصن على العين الحمراء. لم يحدث أي ضرر، مع أنه هدر بمزيد من الغضب بسبب جرأتي في الرد عليه. بدأ يطعن بشراسة، ثم وجدت بعض من الصخور والقيتها عليه، فأصبته في صدره.

زاد ذلك في جرأتي عليه، فضلاً عن أني صرت غاضباً بشدة، غضباً أزال عني كل الخوف. انتزعت صخرة من الجدار. ولابد أن وزن تلك القطعة كان رطلين أو ثلاثة. ورميتها بكل ما أوتيت من قوة على وجه العين الحمراء. كادت الصخرة أن تقضي عليه. فتراجع إلى الوراء منذهلاً، سقطت عصاه منه وكاد هو أن يسقط من المنحدر.

كان مشهده رهيباً فقد غطت الدماء وجهه، وكان يزمجر ويصر على أنيابه مثل خنزير بري. مسح الدم عن عينيه وقد أبصرني، فزأر بغضب. كان قد فقد عصاه، وبدأ باقتلاع الصخور المنهارة ورميها علي، زودني هذا بالذخيرة. رددت عليه ما رمى لي، بل كنتُ أفضل منه في التصويب، فقد برز لي كهدف واضح، بينما لم يكن يحصل على أكثر من لمحات مني بينما كنت احتمي بالجدار الجانبي للكهف.

اختفى مرة أخرى بشكل فجائي. نظرت من فوهة الكهف فرأيته يبتعد. تجمع كل القوم خارج كهوفهم وكانوا يراقبون ما يحدث بخوف دون أن ينبسوا ببنت شفة، وما إن بدأ يتسلق المنحدر هابطاً حتى تراجع أكثرهم رهبة إلى كهوفهم محرجين. كان بوسعي أن أرى نخع العظام العجوز يركض مترنحاً بأسرع ما يستطيع. قفز العين الحمراء من جدار الجرف العشرين قدماً الأخيرة عبر الهواء. هبط إلى جوار أمّ كانت على وشك الصعود. صرخت الأم بخوف، وكان لها طفل بعمر السنتين كانت تُمسكه بقبضتها المتراخية من الخوف فسقط منها وتدحرج عند قدمي العين الحمراء. أرادت الأم التقاطه فسبقها إليه وأمسك الصغير، في اللحظة التالية كان الجسم الصغير يدور في الهواء ويرتطم بالحائط ويتحطم. ركضت الأم إليه وانحنت تطوقه بذراعيها، وقد تكورت حوله وشرعت تبكي.

قام العين الحمراء بالتقاط عصا جديدة. كان نخع العظام لا يزال يترنح في طريقه للصعود إلى كهفه، فجذبت اليد الرهيبة للعين الحمراء عنق الرجل العجوز من الخلف. نظرت لأرى كيف سيكسر رقبة الرجل. وقد ارتجف جسده وهو مستسلم لمصيره. تردد العين الحمراء للحظة، وقد كان نخع العظام يرتجف بشكل رهيب، أحنى رأسه وغطى وجهه بذراعيه المتقاطعين. ضربه العين الحمراء وألقى به إلى الأرض، فنكس الرجل وجهه إلى الأرض. لم يقاومه بل مكث على وضعه باكياً خائفاً من الموت. رأيت الأمرد خارجاً في الفضاء المفتوح، ضارباً صدره ومزمجراً، لكنه كان خائفاً من التقدم إلى الأمام لنجدة والده. ثم استسلم العين الحمراء لنزوة ما فترك العجوز لحاله وانطلق وبيده عصاه.

عاد إلى جدار المنحدر، وبدأ في التسلق. كان مسترخي الأذن يرتجف ويحدق إلى جهتي، سارعت إلى داخل الكهف مرة أخرى. من الواضح أن العين الحمراء مصمم على قتلنا. كنتُ يائساً وغاضباً لكني كنتُ أفكر بهدوء لا بأس به. فركضت ذهاباً

وإيابا على طول الحواف القريبة، وجمعت كومة من الصخور عند مدخل الكهف. كان العين الحمراء على بعد بضعة ياردات تحتي، وقد اختفى للحظة تحت صخرة متقدمة من الجرف. وبينما كان يتسلق ظهر رأسه إلى المشهد، وبدأت برمي الصخور عليه. لمْ تصبه الصخور، إذ كانت تضرب الجدار وتتناثر؛ لكن الغبار المتطاير وشظايا الحجارة ملأت عينيه فانسحب من المشهد.

انبعثت من الحشد غمغمة وقهقهة وهم يلعبون دور المتفرج. أخيراً كان هناك من قد تجرأ على التصدي لمواجهة العين الحمراء. جاءت موافقتهم على موقفي وتزكيتهم لي عبر الهواء. فصاح بهم العين الحمراء، ليصمتوا على الفور. شجعه خوف القوم منه وأعتبره دليلاً على قوته، وأبرز رأسه إليّ محاولاً تخويفي بوجهه المتجهم وبزمجرته وهو يصك أسنانه صكاً. لقد زمجر بشكل رهيب وقد انسحبت فروة رأسه بقوة لتنزل على حاجبيه، رأيتُ كيف انتصب الشعر على ناصيته حتى بدا كأن كل شعرة قد انفصلت عن أخواتها وهي تبرز إلى الأمام.

أصابني مظهره بالقشعريرة، لكنني سيطرت على خوفي، وهددته بالحجارة في يدي، أتوعده بضربه مرة أخرى. ظل يحاول التقدم. فرميت بما في يدي ولم يمسسه الحجر بتاتاً. لكن الرمية التي تلتها كانت ناجحة. صوبت الحجر على رقبته، فأنزلق إلى الوراء، وتوارى عن ناظري ثم رأيته يمسك الجدار بيد واحدة، بينما يقبض بيده الأخرى على حنجرته. وقد سقطت العصا منه وتحطمت على الأرض.

لم يعد بوسعي أن أراه بعد ذلك، على الرغم من أنني سمعته يختنق ويسعل ويشخر. وقد خيم على الجمهور صمت كالموت. أما أنا فقد جثمت على حافة المدخل وانتظرت. لقد تلاشت أصوات الاختناق والسعال وصار بوسعي أن أسمعه الآن وهو ينظف حنجرته. وبعدها بقليل بدأ بالنزول من المنحدر. ذهب بهدوء شديد، متوقفاً كل لحظة ليمسد على رقبته أو يستشعرها بيده.

برؤيته يتراجع، تدافع القوم إلى الغابة بزعيق عالٍ وصياح. يتبعهم نخع العظام العجوز، وهو يعرج ويرتجف، لم يحفل العين الحمراء بهربهم. عندما أقترب من الأرض تحاشى قاعدة المنحدر وقفز إلى كهفه. دون أن ينظر حوله ولا مرة.

حدقت إلى مسترخي الأذن وحدق في. فهمنا بعضنا. وشرعنا على الفور نتسلق بهدوء وحذر كبيرين إلى أعلى المنحدر، عندما وصلنا إلى القمة نظرنا خلفنا كان مكان التجمع مهجوراً، والعين الحمراء لا يزال في كهفه، وقد اختفى الحشد في أعماق الغابة.

استدرنا وركضنا، انطلقنا عبر الفضاءات المكشوفة ودون أن ننتبه للثعابين المحتمل وجودها في العشب، حتى وصلنا للغابة، وانطلقنا إلى أعالي الأشجار، نتأرجح أبعد فأبعد، ننتقل من شجرة إلى أخرى حتى جعلنا بيننا وبين الكهوف ميلاً، حينذاك فقط توقفنا متحصنين بأمان جذع عظيم، توقفنا، نظرنا إلى بعضنا وبدأنا بالضحك متشابكين بالأيادي والأذرع، ومن شدة الضحك كانت عيوننا تغرورق بالدمع وجنوبنا تؤلمنا، وبقينا نضحك ونضحك ونضحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

بعد أن نلنا كفايتنا من الضحك، تراجعنا عن الاستمرار بهروبنا. تناولنا إفطارنا في مستنقع التوت الأزرق. لقد كان نفس المستنقع الذي قمت فيه برحلتي الأولى في هذا العالم منذ سنوات مضت برفقة أمي. لم أرها في أوقات زيارتها للكهوف، فعندما كانت تزور القطيع، كنتُ دائماً ما أكون بعيداً في الغابة. لمحت الثرثار مرة أو اثنتين في الفضاء المكشوف واستمتعت بالسخرية منه وإغضابه من فوهة كهفي. فيما عدا هذهِ اللحظات اللطيفة، فقد هجرت عائلتي غاية في الهجر. لم أكن مولعاً بهم كثيراً، وعلى أي حال كنتُ على خير حال وحدي.

بعد أن ملأنا بطوننا بالتوت، وأكلنا كل ما كان موجوداً في عشين من أعشاش طائر السمان التي كانت تحوي بيوضاً على وشك أن تفقس كضرب من التحلية. تجولنا أنا ومسترخي الأذن بحذر بين الأشجار باتجاه النهر. ها هنا كان بيتي القديم في الأشجار، الذي طردني منه الثرثار. لا يزال البيت عأمراً. وقد أزداد عدد عائلتي، فها هو طفل صغير يتمسك بأمي بشدة وكانت هناك بنت أيضاً، شبه ناضجة كانت تراقبنا بحذر من فروع قريب. كانت بلا شك أختي، أو بالأحرى أختي غير الشقيقة.

عرفتني أمي لكنها حذرتني ما إن بدأت بالتسلق إلى الشجرة. مسترخي الأذن الذي كان أكثر حذراً مني تراجع مغلوباً على أمره، ولم يكن بوسعي إقناعه بالعودة. في ما بعد نزلت أختي إلى الأرض وعلى الأشجار القريبة لهونا ولعبنا كل الظهيرة. ثم جاءت المعضلة. لقد كانت أختي لكن ذلك لم يمنعها من معاملتي ببغض فقد ورثت كل شرور الثرثار. التفتت إلى فجأة، في غضب وهياج بلا سبب وخمشتني بأظافرها، وجرت شعري وغرزت أسنانها الصغيرة الحادة في ساعدي. عندها فقدتُ أعصابي. لم الحق أي أذى بها، لكنها كانت بلا شك أقوى صفعة تتلقاها حتى ذلك الوقت.

صرخت بي وصاحت، ويالها من صيحة. سمعها الثرثار الذي كان بعيداً طوال اليوم والذي كان قد عاد للتو، فهرع إلى موضعنا. أسرعت أمي كذلك لكنه وصل أولاً. لم ننتظر مقدمه. فقد هربنا بعيداً، ولاحقنا الثرثار يطاردنا مطاردة العمر عبر الأشجار، ونحن نضحك.

بعد أن انتهت المطاردة اكتشفنا بأن الشفق بدأ يحل. سيحل الليل حاملاً كل رعبنا معه، كانت العودة إلى الكهف أمراً غير وارد أبداً. لقد جعل العين الحمراء ذلك مستحيلاً. اعتصمنا بشجرة كانت منفردة عن باقي الأشجار وفي أعلى تفرعها قضينا الليلة. لقد كانت ليلة بائسة. في الساعات الأولى من الليل أمطرت السماءِ بغزارة، ثم استحال الجو إلى برد زمهرير وهبت ريح قارصة علينا. احتضن كلٌ الآخر وجسدانا مبتلان يرتجفان وأسناننا تصطك. افتقدنا الكهف الجاف المريح والذي كان سرعان ما يعمه الدفء من جسدينا.

حل علينا الصباح ونحن شقيان عزما على أن لا يقضيا ليلة أخرى كتلك. متذكرين ملاجئ الأشجار التي كان يبنيها الكبار، صممنا على صنع ملجأ لأنفسنا. بنينا أطاراً ساذجاً للعش، عند ملتقى الأفرع حتى أننا نصبنا عدة أعمدة للسقف، ثم زالت الغيوم

وانكشفت الشمس، وبتأثير ظهورها بدا علينا أننا نسينا قسوة الليل وانطلقنا في البحث عن إفطار.

وكان ما فعلناه بعد ذلك خير دليل على افتقارنا للمنطق في تلك الأيام فقد انغمسنا في اللعب. ولا بد أن الأمر قد استغرقنا شهراً كاملاً للعمل بشكل متقطع قبل أن نكمل بيت الشجرة، وما إن انتهى لم نستخدمه مجدداً.

لكنني أتعجل في سرد حكايتي، فعندما انغمسنا في اللعب، بعد إفطار اليوم التالي لهروبنا من الكهف، سابقني مسترخي الأذن عبر الأشجار حتى وصلنا إلى النهر، إلى حيث مصب بركة كبيرة آتية من مستنقع التوت الأزرق. كان مصب البركة واسعاً بينما البركة ذاتها بلا تيار مائي. في الماء الراكد عند مصب البركة، ترقد كتلة كبيرة من جذوع الأشجار المتشابكة كان بعضها غضاً اقتلعته الريح، بينما كان بعضها الآخر بالياً من فصول الصيف الطويلة، وبعضها كان جافاً سقطت عنه أذرعه وأوراقه، كانت الكتل الخشبية تطفو على الماء، وهي ترتفع وتهبط وعندما حططنا عليها انقلبت بنا.

هنا وهناك بين الجذوع كانت هناك تصدعات يملأها الماء، وكان بوسعنا أن نرى مجاميع السمك الصغير مثل سمك المنوه. يهز ذيله ذهاباً وإياباً، صرنا أنا ومسترخي الأذن صيادي سمك على الفور. رقدنا على بطنينا على الجذوع، محافظين على الهدوء التام، انتظرنا حتى يقترب سمك المينوه (9)، حتى نقوم بالتمرير الخاطف بأيدينا. كنا نأكل صيدنا في الحال، وهو لا يزال رطباً يتلوى. ولم نلاحظ فقدان الملح.

صار فم البركة مكان لعبنا المفضل. هناك قضينا العديد من الساعات كل يوم نصيد السمك ونلهو بالجذوع، وهنا تعلمنا في أحد الأيام أول دروس الملاحة. فقد حدث أن العمود الذي كان يتمدد عليه مسترخي الأذن انجرف، إذ هبت موجة خفيفة من الهواء وجرفت العمود من عند الساحل، وعندما لاحظتُ مأزقه كانت المسافة بالفعل أكبر من أن يستطيع القفز عليها.

في البدء كانت الحادثة العرضية أمراً مضحكاً وحسب. لكن تغير رأيي بعد أن داهمتني دفقة خوف مفاجأة كانت شائعة في عصر انعدام الأمن الدائم ذاك، سرى ذلك الخوف في داخلي، وصدمتُ لأني غدوت وحيداً. فقد صرتُ فجأة واعياً بابتعاد مسترخي الأذن على ذلك الشيء الغريب على بعد مسافة قليلة. صحت بصوت عالٍ محذراً له، استيقظ خائفاً، ونقل وزنه بتهور على قطعة الخشب فانقلب اللوح به، حاول التسلق عليها إلى الأعلى ثلاث مرات، قبل أن ينجح. ثم نجح أخيراً، ربض عليه وتلفظ بأصوات غير مفهومة من شدة الخوف.

لم تكن بيدي حيلة، ولا هو أستطاع فعل شيء. كانت السباحة شيء لا نعرفه في حينها. فقد كنا بعيدين بالفعل كل البعد عن الأشكال الدنيا من الحياة لدرجة أننا فقدنا غريزة السباحة، ولم نصبح بعد بشراً بما فيه الكفاية لنكون قادرين على حل مثل هذهِ المشكلة. جلت مغموماً منفطر القلب أعلى وأسفل الجرف، محاولاً أن أبقى قريباً بالقدر الذي أستطيع من مسترخي الأذن وتجواله الذي كان مرغماً عليه، وقد كان ينوح ويبكي بصوت عالٍ حتى أن من العجيب أنه لم يجلب علينا بعويله كل حيوان مفترس على بعد ميل منا.

مرت الساعات. وارتفعت الشمس في كبد السماء وبدأت تهبط إلى الغرب. توقفت الريح الخفيفة وتركت مسترخي الأذن في طوفانه على بعد مائة قدم. ثم وبشكل ما اكتشف مسترخي الأذن اكتشافاً عظيماً إذ بدأ بالتجذيف بيديه، ولا أدري كيف أهتدى إلى تلك الفكرة. كان تقدمه في البداية بطيئاً وغير منتظم. ثم استقام وبدأ بالتجذيف بشراسة وصار يقترب مني أكثر فأكثر. لم يكن بوسعي أن أفهم ما يجري فجلست وراقبت وانتظرته حتى لامس الشاطئ.

لكنه كان قد تعلم شيئاً، تعلم أكثر مني. وبعد الظهيرة غادر الشاطئ عامداً على قطعة الخشب. أقنعني بعد ذلك بالانضمام إليه، تعلمت حيلة التجذيف أنا الآخر. وفي الأيام القليلة التالية لم يكن بوسعنا أن ننتزع أنفسنا من المستنقع فقد كنا منهمكين للغاية في لعبتنا الجديدة حتى أننا تجاهلنا الأكل. نأوي في الليل عند أي شجرة قريبة. ونسينا وجود العين الحمراء.

كنا دائماً ما نجرب الواحاً خشبية جديدة، وتعلمنا أنه كلما كان جذع الشجرة أصغر كلما ازدادت قدرتنا على دفعه أسرع. كما تعلمنا أن الجذوع الأصغر أكثر عرضة للانقلاب فسرعان ما تتملص منا وتسقطنا في الماء. كان هناك شيء آخر عرفناه عن الأخشاب الصغيرة، عندما جذفنا ذات يوم وكلّ على لوحه متجاورين، اكتشفنا وبمحض المصادفة أثناء اللعب أنه عندما تصطف الألواح سوية ويمسك كل واحد منا بيد واحدة ورجل واحدة لوح الآخر، تصير الألواح ثابتة أكثر، ويحول ذلك دون انقلابها. وبهذا يتبقى لكل واحد منا يد ورجل حرتان بالتجذيف. اكتشافنا الأخير هذا مكننا من استخدام الألواح الصغيرة وبالتالي اكتسبنا سرعة أعظم. وهذا غاية ما تمخضت عنه اكتشافاتنا. لقد اخترعنا الطوف الأكثر بدائية دونما سابق معرفة. ولم يخطر على أذهاننا البتة ربط الألواح ببعضها باستخدام العرائش أو خيوط الجذور الطويلة. بل اكتفينا بربط الألواح بالأيدي والأرجل.

لم يمر وقت طويل حتى فقدنا حماستنا الأولى للملاحة وعدنا إلى ملجأ الشجرة الخاص بنا للنوم، وهناك وجدنا السريعة، رأيتها للمرة الأولى بينما كانت تجمع أكواز البلوط من شجرة بلوط كبيرة قرب شجرتنا. كانت مرتعبة للغاية أول الأمر إلا أنها بقيت ساكنة في مكانها؛ وعندما أدركت أننا كشفنا امرها ألقت بحملها وتخلت راكضة بسرعة كبيرة. صرنا نلمحها بين الفينة والفينة من يوم إلى آخر، وعندما نعود من ارتحالنا بين شجرتنا وفم البركة كنا نذهب للبحث عنها.

وذات يوم توقفت عن الهرب منا. انتظرت مقدمنا، وأطلقت لنا أصوات سلام ناعمة. لم نكن نستطيع الاقتراب كثيراً. إذ كلما بد لنا أننا قد اقتربنا منها، كانت تتراجع فجأة لتبقي مسافة أمان بيننا وتبدأ بإطلاق أصوات السلام مجدداً. استمر هذا لبضعة أيام، وقد استغرقنا الأمر بعض الوقت للتعرف عليها. لكن المهمة تمت في النهاية، وكانت تنضم الينا في لهونا أحياناً.

أعجبت بها من النظرة الأولى. كان مرآها يبعث السرور في خاطري أكثر من أيّ شيء آخر. فقد كانت لطيفة، وعيناها ألطف عيون رأيتها على الأطلاق. كانت في ذلك مختلفة للغاية عن بقية بنات ونساء القوم، واللائي يملن للشراسة. لم تفتعل أي أصوات مزعجة أو صرخات غاضبة، وبدا أن من طبيعتها أن تهرب من المشاكل عوضاً عن أن تبقى للقتال.

ذلك اللطف الذي ذكرته كان يبدو نابعا من كيانها كله. مظهرها الجسدي وتعابير وجهها كانت سبباً لذلك الانطباع. بدت عيناها أكثر اتساعاً من أي عيون أخرى، دون أن تكون غائرة في محاجرها، بينما كانت أهدابها أطول وأكثر انتظاماً من أهداب بنات جنسها. حتى أنها لم يكن كثير الغلظة ولم يكن مسطحاً بل كانت له قصبة رائعة وخياشيم مفتوحة إلى الأسفل. ثم أن قواطعها لم تكن كبيرة ولم تكن شفتها العليا كبيرة ولا متدلية إلى الأسفل ولا بارزة إلى الأمام. لم تكن ذات شعر كثير، ما عدا على سطح الذراع والقدمين وبين الكتفين؛ وقد كانت نحيلة الورك، وما في ساقيها التواء ولا غلظة.

غالباً ما تساءلت عنها ناظراً إلى الوراء بعين رجل القرن العشرين وأنا في وسط أحلامي، فيخامرني الشك في أصل انتمائها، ربما كانت من قوم النار. لا بد أن يكون والدها أو والدتها أو كلاهما يتحدران عن سلالة أرقى. رغم أن تلك الأمور لم تكن شائعة الحدوث، إلا أنها كانت تحدث وأنا قد رأيتُ بأم عيني كيف أن بعضاً من قومناً كانوا ينتكسون، ويتمردون ويذهبون للعيش مع قوم الأشجار.

وهي ليست من قومنا ولا من قوم الأشجار. كانت السريعة مختلفة بشكل جذري عن أي امرأة في القطيع، وقد حدث أن راقت لي منذ أول نظرة. فلطفها ونعومتها جذباني. لم تكن فيها قسوة ولا شراسة، لم تحارب أبداً، كانت تهرب دائماً ومن هنا جاء معنى اسمها، كما لا بد أن تكون قد تفطنت بنفسك. كانت تتسلق بشكل أفضل مني ومن مسترخي الأذن. وعندما نلعب القفز لم يكن بوسعنا مجاراتها إلا بمحض المصادفة، بينما كانت تستطيع إمساكنا متى ما رغبت. لقد كانت سريعة بشكل لافت للنظر بكل حركة تقوم بها، وكانت لديها عبقرية في الحكم على المسافات ولا يعادل ذكاءها إلا جرأتها في التسلق. كانت شديدة الرهبة في كل المواضيع الأخرى، لكن لم يكن لديها خوف فيما يخص التسلق أو الركض عبر الأشجار، وكنا أنا ومسترخي الأذن أخرقين ومتثاقلين وجبانين بالمقارنة بها.

كانت يتيمة، إذ لم نرها مع أي أحد أبداً، ولم يكن من خبر نعرفه عن طول الفترة التي عاشتها وحيدة في العالم. لا بد أنها تعلمت في وقت مبكر من عجزها كطفلة أن السلامة في الهرب فقط. وقد كانت حكيمة وحذرة جداً. صارت معرفة المكان الذي تأوي إليه كل ليلة لعبة لنا أنا ومسترخي الأذن. كان لها مأوى في شجرة في مكان ما بلا شك، ولا بد أنه لمْ يكن بعيداً جداً، لكن لم يكن ممكناً إيجادها بطريقتنا في التعقب. كانت راغبة باللعب معنا طوال النهار، إلا أنها ظلتْ تضن علينا بِسر مكان أقامتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

يتوجب عليّ أن أبين أن الوصف الذي قدمته تواً عن السريعة ليس وصفاً كان يمكن أن يقدمه السن الكبير، ذاتي الأخرى في أحلامي، سلفي مما قبل التاريخ. إنما هو أنا، الرجل المتمدن، أنا من ينظر إلى أحلامي عبر عين السن الكبير.

وهذا هو حال الكثير مما أرويه من أحداث ذلك الزمن البعيد. ثمة ازدواجية في انطباعاتي والتي هي غاية في التشوش مما قد يُربك القارئ. من الضروري أن أقف في روايتي عند هذا الحد والإشارة إلى هذهِ الازدواجية، إلى هذا الخلط المحير للشخصية. أنا الرجل الحديث، أنا من ينظر إلى الخلف عبر القرون ويزن ويحلل مشاعر ودوافع السن الكبير، ذاتي الأخرى. فهو لم يبال بتمحيص الأمور وتحليلها. كان البساطة بحد ذاتها. لقد عاش الأحداث فحسب، دون أن يتأمل في أسباب عيشه على تلك الشاكلة، حياته التي كانت غريبة الأطوار في أغلب الأحيان.

ولما كبرت ذاتي الحقيقية، توغلت في جوهر أحلامي أكثر فأكثر. وقد يحلم المرء ومن ثم حتى في وسط الحلم يكون واعياً بكونه يحلم. وإذا ما كان الحلم سيئاً، تجده يواسي نفسه في لحظتها بأنه مجرد حلم، وهذه تجربة نتشاركها جميعاً فيما بيننا. وهكذا فإن الرجل الحديث كان موجوداً في أحلامي أكثر الوقت، وفي هذا الازدواج الغريب للشخصية كان هو الممثل والمتفرج في الوقت ذاته. وغالباً ما أضطرب أنا المتمدن مبهوتاً من كمية الحماقة واللامنطقية والغباء الهائل للغاية في ذاتي البدائية.

أمر أخير، قبل أن انتهي من هذا الانحراف عن القصة. هل حلمت من قبل بأنك تحلم؟ الكلاب تحلم، والخيول تحلم. كل الحيوانات تحلم. وعلى أيام السن الكبير كان أنصاف البشر يحلمون أيضاً، وعندما تكون أحلامهم سيئة فأنهم يشرعون في العواء في نومهم، وأنا الرجل المتمدن رقدت مع السن الكبير وحلمت أحلامه.

هذا يكاد يتجاوز قدرة الفهم على الاستيعاب، أعرف ذلك؛ ولكنني أعرف أن هذا قد حدث. ودعني أخبرك أن أحلام الطيران والزحف كانت واضحة لدى السن الكبير، مثلما هو واضح عندك حلم السقوط في فضاء مفتوح.

فالسن المكسور لديه ذات أخرى كذلك، وعندما ينام كانت ذاته الأخرى تحلم بالعودة إلى الماضي، العودة لزمان الزواحف المجنحة والصدام وظهور التنانين، وما وراءها من حياة تشبه حياة القوارض من صغار الثدييات، ويبتعد في أحلامه، حتى الشاطئ والخليط البدائي، ليس بوسعي ولا جرأة عندي على إخبارك بما هو أكثر من ذلك. فالأمر برمته غامض أشد الغموض ومعقد وقبيح. بوسعي فقط الإشارة إلى ذلك المشهد الرهيب الشاسع، والذي شهدتُ فيه على قسوة تطور الحياة، ولا أقصد التطور من أنصاف البشر، أشباه القردة إلى الإنسان، ولكن التطور مما هو أبعد، من الدودة.

والان بالعودة إلى حكايتي، دعني أوضح أنني أنا السن الكبير لم أعرف السريعة على انها مخلوق رقيق متماثل الوجه والجسد بعيون واسعة وأهداب طويلة، وأن لها قصبة أنف جميلة وخياشيم متجهة إلى الأسفل وأن هذا هو ما صنع جمالها. عرفتها فقط على أنها أنثى لطيفة العينين كانت تطلق أصواتاً ناعمة ولم تكن تقاتل. وقد أعجبني اللعب معها، دون أن أدري ما السبب، أعجبني البحث عن الطعام برفقتها

والذهاب إلى اعشاش الطيور معها، ويجب أن اعترف انها علمتني أشياء كثيرة عن تسلق الأشجار، كانت حكيمة جداً، وغاية في القوة، ولا ترتدي تنانير تعيق من حركتها.

في هذا الوقت بدأ مسترخي الأذن ينشق عن صحبتنا. فقد صارت له عادة التجول قريباً من الشجرة التي تعيش فيها أمي. كانت أختي الشريرة تروق له، وصار الثرثار متساهلاً مع وجوده. كان هناك بضعة شباب أيضاً وهم من نسل الزيجات الأحادية ممن عاشوا في الجوار وكان هو يلهو معهم.

لم أستطع أن أجعل السريعة تنضم إليهم. كلما زرتهم كان تنسحب إلى الخلف وتختفي. أتذكر مرة أني بذلت جهداً كبيراً في إقناعها. لكنها نظرت إلى ما ورائها بقلق، ثم تراجعت، وبدأت تناديني من فوق شجرة. وهذا ما جعلني لا أرافق مسترخي الأذن في جولته كلما يذهب لزيارة أصدقائه الجدد. كنتُ والسريعة رفيقين جيدين، وقد بذلت جهدي في البحث عن مأواها ولم أفلح في الاهتداء إليه. ومما لا شك فيه، أنه لو لم يحدث شيء، لكنا قد تزاوجنا أنا وإياها بسرعة، إلا أن شيئاً قد حدث بالفعل.

في إحدى الصباحات، لم تظهر السريعة. ذهبنا أنا ومسترخي الأذن لفم البركة للعب على الألواح. وما كدنا نصير فوق الماء حتى فاجأنا هدير غاضب، كان ذلك العين الحمراء، وهو يجثم على حافة كتلة من الأخشاب، وعيناه تشع كراهية وهو يصوب نظره تجاهنا كنا مرعوبين بشدة، فما من كهف ضيق لنلتجئ إليه ها هنا، لكننا سلمنا من شره مؤقتاً بفضل عشرين قدماً من الماء كانت تفصل بيننا مما زاد في شجاعتنا.

وقف العين الحمراء منتصباً وبدأ بضرب صدره المشعر بقبضته. كنا على لوحين متجاورين، ربطناهما ببعض بأيدينا وجلسنا لنضحك عليه. في البدء كان ضحكنا دون طيب خاطر، إذ كان مشوباً بالخوف، ولكن عندما صرنا واثقين من عجزه انطلقنا صاخبين. ثار علينا هائجاً، وطحن أسنانه بغضب لا فائدة ترجى منه. وفي أمننا الخيالي سخرنا منه وتمادينا في السخرية. لقد كنا دائماً قوماً قصيري النظر.

فجأة توقف العين الحمراء عن ضربه لصدره وعن طحن أسنانه ثم ركض عبر تزاحم الأخشاب إلى الشاطئ.

وبلمح البصر استحال فرحنا رعباً. لم يكن من شيم العين الحمراء أن يتغاضى عن انتقامه بسهولة. انتظرنا بخوف وارتجفنا مما كان سيحدث. لم يقع في خاطر أي منا أن نجذف بعيداً البتة. عاد بسرعة كبيرة قافزاً قفزة عظيمة عبر الزحام، بيد ضخمة مملوءة بالحصى المستدير المنقوع بالماء. أسعدني انه لم يتمكن من العثور على قذائف أكبر، فلو أن تلك الحجارة كانت تزن رطلين أو ثلاث، ونحن لا نبعد عنه أكثر من عشرة أقدام، لكان قتلنا بالتأكيد.

إلا أن الخطر لم يكن هيناً كذلك. زييب! حصاة صغيرة كانت مدفوعة بسرعة تماثل سرعة الرصاص تقريباً. بدأنا بالتجذيف بشكل محموم. ويز ـ زيب ـ بانغ! صرخ مسترخي الأذن بألم مفاجئ، وقد صدمته الحصاة بين كتفيه. وكانت الثانية من نصيبي فانطلقت صيحتي. الشيء الوحيد الذي أنقذنا كان نفاد ذخيرة العين الحمراء. انطلق عائداً إلى مكان الحصى لجلب المزيد، بينما جذفنا بعيداً.

تمكنّا بالتدريج من أن نفلتَ من مرماه، رغم أنه استمر بالتنقل لجلب المزيد من الذخيرة، وقد واصلت الحصى الأزيز بالقرب منا. كان هناك تيار بسيط، عند وسط البركة، وفي خضم حماسنا لم ننتبه لذلك التيار الذي كان يجرفنا دافعاً بنا إلى النهر. بقينا نجذف واستمرَ العين الحمراء محافظاً على قربه منا بالقدر الذي يستطيعه عبر ملاحقتنا على طول الشاطئ. ثم اكتشف صخوراً أكبر، ذخيرة بذلك الحجم زادت من طول مدى قذائفه. وسقطت إحدى الشظايا، كانتْ خمسة أرطال كاملة في الوزن، تحطمت بجانبي، حتى تطايرت من اللوح بتأثيرها عدة شظايا خشبية، انطلقت كأبر نارية صوب قدمي. لو أن هذهِ الضربة أصابتني مباشرة لقتلتني.

ثم إن التيار قبض علينا. كنا منغمسين بتجذيفنا بقوة، حتى أن العين الحمراء كانَ أول من لاحظ ما يحدث، فكان أول ما نبهنا إلى ما يحدث صيحته بالنصر. كلما تصادم التيار القوي بماء البركة انبثقت سلسلة من الدوامات الصغيرة، وقد جعلت الدوامات ألواحنا تتخبط وتدور حول نفسها. توقفنا عن التجذيف وكرسنا كل طاقتنا لإبقاء الألواح متصلة ببعضها. استمر العين الحمراء بقصفنا وكانت شظايا الصخور تتساقط علينا وتهدد حياتنا ويرتفع معها رذاذ الماء. وكان يشمت بنا بشدة وصخب في الوقت ذاته. حدث عندها تحول حاد في النهر عند النقطة التي يدخل فيها المستنقع، وانحرف التيار الرئيسي للنهر إلى الضفة البعيدة من النهر باتجاه الشمال. انجرفنا بسرعة، وسرعان ما أخرجنا هذا الانجراف من نطاق العين الحمراء، واخر ما رأينا منه كان بعيداً كنقطة في الأرض، حيث كان يقفز صعوداً وهبوطاً مردداً هتاف النصر.

في ما عدا الاحتفاظ باللوحين سوياً، لم نفعل أنا ومسترخي الأذن شيئاً. كنا مستسلمين لمصيرنا، وبقينا مستقرين إلى أن أثارتنا حقيقة أننا كنا ننجرف على طول الشاطئ الشمالي دون أن نبتعد أكثر من مائة قدم بعيداً. بدأنا نجذف صوبه. كانت القوة الاساسية للتيار وراءنا عند الشاطئ الجنوبي، وكانت نتيجة تجذيفنا أن تجاوزنا التيار الذي كان سريعاً وضيقاً ونجونا بأنفسنا منه. وقبل أن ندرك ما يحدث جرفتنا دوامة بطيئة.

انجرفت الواحنا ببطء وفي النهاية رست بلطف على الجرف. زحفنا أنا ومسترخي الأذن بهدوء باتجاه الشاطئ. انجرفت الألواح وقد خرجت من الدوامة ومضت بعيداً مع التيار. نظرنا إلى بعضنا لكننا لم نضحك، كنا في أرض غريبة، ولم يدر في خلدنا أننا يمكن أن نعود إلى أرضنا بذات الطريقة التي وصلنا بها.

لقد تعلمنا كيفية عبور النهر رغم أننا لم نعرف بذلك. وكان ذلك شيئاً لم يصنعه من قبل أي واحد من القوم. كنا أول القوم الذين يخطون خطوة باتجاه الضفة الشمالية للنهر، وفي هذا الخصوص فأنا أؤمن بأنهم قد فعلوا ذلك في وقت قادم بلا شك، لكن هجرة قوم النار، والهجرات المتلاحقة للناجين من القوم أعاقت تطورنا عدة قرون.

في الحقيقة، ليس هناك من سبيل لمعرفة النتائج الكلية للمأساة التي خلفتها هجرة قوم النار. أنا عن نفسي أميل للتصديق أن ذلك قد جلب الهلاك لقومي قاطبة وقضى عليهم؛ ذلك أننا كفرع من حياة أدنى والتي هي البراعم الأولى للإنسان، كنا نموت بسرعة ونهلك عند الأمواج الهادرة للشاطئ الصخري حيث يدخل النهر إلى البحر.

طبعا، لا يزال أمامي أن أفصل لكم هذا الحدث، إلا أنني أستبق قصتي بالحديث ها هنا، وسيتم ذلك قبل أن أكمل حديثي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

لا فكرة عندي عن طول الوقت الذي تجولت فيه أنا ومسترخي الأذن في الأرض الواقعة شمال النهار. كنا مثل بحارة تحطمت بهم السبل في جزيرة صحراوية، وأقصى ما يشغل بالنا احتمالية رجوعنا للوطن مجدداً. تركنا النهر وراء ظهرنا، وتجولنا لأسابيع وأشهر في تلك البرية التي لا أثر للبشر فيها. يتعسر عليّ وبشدة أن أنشد تذكر ما كان عليه الحال في ترحالنا، محال أن أتذكر كلّ الأحداث التي جرت من يوم لآخر.

معظم ذكرياتي عن تلك الأيام ضبابية وباهتة. على الرغم من وجود ذكريات حية من الأشياء التي حدثت هنا وهناك، لا سيما ذكريات الجوع الذي خبرناه على الجبال العالية بين البحيرة الطويلة والبحيرة النائية والعجل الذي امسكناه وهو نائم في الأجمة. هناك كذلك قوم الأشجار الذين سكنوا الغابة الممتدة بين البحيرة الطويلة والجبال. كانوا هم من طاردونا إلى الجبال وأجبرونا على الرحيل إلى البحيرة النائية.

أول ما فعلناه بعد أن تركنا موضع النهر، هو أننا توجهنا باتجاه الغرب حتى وصلنا إلى جدول ماء صغير يمر عبر أراضي الأهوار. ومن هناك مضينا بعيداً صوب الشمال، نسير بمحاذاة الأهوار وبعد بضعة أيام وصلنا إلى ما اسميته البحيرة الطويلة قضينا بعض الوقت حول نهايتها العليا، حيث وجدنا الطعام وفيراً، وحدث ذات يوم في الغابة، تصرفنا ببشاعة مع واحد من قوم الأشجار. هذهِ المخلوقات لم تكن سوى قردة شرسة لا غير، إلا أنهم لم يكونوا مختلفين عنا كثيراً. كانوا أكثر شعراً، صحيح، كانت أرجلهم قصيرة، عيونهم أصغر بقليل، أعناقهم أقصر قليلاً وأكثر غلظة وسيقانهم أشد التواءً من سيقاننا والخياشيم تشبه الفتحات في وجه مسطح. ولكن لم يكن لديهم شعر على وجوههم ولا على راحة اياديهم وباطن أقدامهم وقد جعلوا لأنفسهم أصواتاً تشبه أصواتنا مع معانٍ متماثلة إلى حد ما. فبعد كل شيء لم يكن قومي وقوم الشجر شديدي الاختلاف فعلياً.

رأيته أولاً، كان عجوزاً صغيراً ذابلاً، متغضن الوجه بعينين غائمتين بلون بني. وقد كان فريسة مشروعة. ففي عالمنا لم يكن هناك تعاطف بين الانواع، وهو لم يكن من نوعنا، بل من قوم الأشجار وهو طاعن في السن بعد كل شيء. كان يجلس عند قاعدة شجرة، شجرته على الأغلب، إذ كنا نستطيع أن نرى من بين الأفرع عشه البالي حيث يقضي الليل.

أشرت إلى مسترخي الأذن، وأسرعنا نحوه. بدأ العجوز بالتسلق، لكنه كان بطيئاً جداً. أمسكته من ساقه وسحبته إلى الخلف. ثم بدأنا المجون. ضربناه وقرصناه، جذبنا شعره، لوينا أذنيه، ولكزناه في جنبيه بالأغصان، ونحن نضحك طوال الوقت بعيون دافقة بالدمع. كان غضبه غير المجدي هو الأكثر سخفاً. وقد بدا منظره كمشهد كوميدي، كان يجاهد يريد إذكاء النار في الرماد البارد لشبابه، يسعى لإحياء قوته الميتة، قوته التي غارت منه عبر السنين. في ملامحه ترتسم تعابير محزنة بدلاً عن تعابير الغضب الذي يريدها على وجهه، أخذ يصر على أسنانه البالية ـ ضارباً صدره الضئيل بقبضتين واهنتين.

كما أنه كان يسعل، ويلهث وتنقطع أنفاسه ويبصق بشكل غير عاديّ. كلما حاول تسلق الشجرة سحبناه مجدداً نحونا، حتى استسلم في النهاية لضعفه، ولم يبادر لفعل شيء في ماعدا الجلوس والنحيب. أنا ومسترخي الأذن جلسنا عنده، أذرعنا حول بعضنا، نضحك من مأساته.

انتقل من النحيب إلى الأنين، ومن الأنين إلى العويل حتى استطاع في النهاية أن يطلق صرخة. أخافنا بصرخته، لكن ما إن حاولنا إيقافه، حتى صار صراخه يعلو ويعلو. حينذاك وصلت إلى مسامعنا من مكان ليس بالبعيد في الغابة صيحات «جويك! جويك!». وعلى أثر تلك الصيحات، انطلقت أصوات إجابة، كان بعضها يصل من مكان بعيد للغاية «جويك! جويك! جويك!» كان هناك كذلك صيحات «هووو! هووو!» كانت الصيحات تتصاعد من كل مكان حولنا.

ثم بدأت المطاردة، مطاردة بدا أنها لنْ تنتهي أبداً ـ قبيلة كاملة من قوم الأشجار لاحقتنا عبر الغابة، وكادوا أن يمسكوا بنا غير مرة. كنا مجبرين على أن نركض على الأرض، بدلاً عن القفز على الأشجار، وكان لنا بذلك السبق عليهم، فقد كانوا قوم أشجار أقحاحاً، كانوا أسرع منا بالقفز على الأشجار وكنا أسرع منهم في العدو على الأرض. مضينا باتجاه الشمال، القبيلة تعوي في إثرنا. كنا نسبقهم في العراء، ويعودون للحاق بنا في المناطق الشجرية، حتى كانوا قاب قوسين أو أدنى من الإمساك بنا أكثر من مرة. وباستمرار المطاردة، أدركنا أننا لم نكن من نوعهم، وأن الروابط بيننا لا مكان فيها للتعاطف.

طاردونا لساعات، حتى بدا أن الغابة لن تنتهي. حاولنا النزوح إلى الأماكن المفتوحة في الغابة، لكن تلك الأماكن كانت تقودنا في كل مرة إلى غابات أكثف، ظننا أحياناً أننا قد نفذنا بجلدنا، وجلسنا للراحة، ولكن دائماً وقبل أن نتمكن من التقاط أنفاسنا، تنطلق تلك الصيحة الرهيبة «جويك، جويك» والأخرى «هووو! هووو!» وكانت صيحات الكراهية تنتهي في بعض الأحيان بضحكات وحشية ها ها ها ها ها هههههها

وعلى هذا النحو كان قوم الأشجار الساخطون يلاحقوننا عبر الغابة. أخيراً وقبل انتصاف النهار، بدأت المنحدرات ترتفع أكثر فأكثر وتصير الأشجار أصغر فأصغر. ثم صرنا إلى الجوانب المعشوشبة من الجبال. وهناك كان بوسعنا اكتساب الوقت، حتى استسلم قوم الأشجار وعادوا إلى غابتهم.

كانت الجبال جرداء كئيبة، حاولنا ثلاث مرات أن نعود إلى الغابة بعد تلك الظهيرة، لكن قوم الأشجار ظلوا في مكانهم هناك، وأجبرونا على التراجع. قضينا الليل في شجرة قزمة، لا تعدو أن تكون أكثر من شجيرة. لم يكن ذلك آمناً على الإطلاق، فقد جعل منا فريسة سهلة لأي حيوان وحشي قد يصادفنا.

في الصباح، نال منا قوم الأشجار تقديراً مغايراً واحتراماً كبيراً، لذا توجهنا صوب الجبال ننشدها، لم تكن لدينا خطة محددة، أو حتى فكرة، ذلك مؤكد، فما من دافع عندنا ليحركنا سوى الهرب من الخطر الذي يترصدنا. ذكرياتي عن تجوالنا في الجبال ذكريات ضبابية، بقينا في تلك المنطقة القادمة عدة أيام. وعانينا على وجه الخصوص من الخوف الشديد، لقد كان المكان جديداً وغريباً، عانينا من البرد كذلك، ومن الجوع فوق كل شيء.

لقد كانت أرضا مقفرة لا شيء فيها سوى الصخور والشلالات الصاخبة يعلو تدفقها الزبد. تسلقنا وديااناً جبارة وممرات ضيقة بين الجبال وهبطنا منها، حيثما ولينا أبصارنا، في جميع الاتجاهات وعلى مد البصر، سلسلة فسلسلة كانت الجبال اللامتناهية تطوقنا دائماً وأبداً. في الليل نمنا في الثغور والشقوق، وفي ليلة باردة تكورنا على قمة صخرة اسطوانية رفيعة بدت مثل شجرة.

وأخيراً، في ظهيرة يوم حار، وقد أصابنا الجوع بالدوار، وصلنا إلى نهاية هذا العمود الفقري العالي للأرض، إلى الشمال، عبر السلاسل الجبلية المتناقصة والمنخفضة لمحنا بحيرة بعيدة، تنعكس عليها أشعة الشمس، وحولها أراض معشوشبة فسيحة وإلى الشرق كانت الغابة الممتدة تبدو كخط داكن اللون.

استغرقنا الوصول إلى البحيرة يومين كاملين، وقد استبد بنا الضعف والجوع؛ ولكن على ساحل البحيرة عثرنا على عجل كبير بعض الشيء نائماً بِدعة وسط الأحراش، سبب لنا الكثير من المتاعب، فنحن لم نعرف طريقة للقتل سوى استخدام أيدينا. أكلنا ملء بطوننا، وحملنا باقي اللحم إلى الغابة الشرقية واخفيناه في شجرة. لم نعد لتلك الشجرة أبداً. لأن ساحل النهر الذي يجري من البحيرة النائية كان مكتنزاً بأسماك السلمون التي جاءت من البحر لتضع بيوضها هناك.

امتدت الأراضي الخضراء إلى جهة الغرب من البحيرة، وكانت هناك جموع من البيسون (الثور الأمريكي) والماشية البرية. كان هناك أيضاً العديد من قطعان الكلاب البرية. ولم تكن هناك أشجار. لذا لم يكن ذلك بالمكان الآمن لنا. مضينا بمحاذة ساحل النهر متجهين صوب الشمال لبضعة أيام. ولسبب لا أعرفه تركنا فجأة مجرى النهر وانتقلنا إلى الشرق، ثم إلى الجنوب الشرقي، عبر الغابة العظيمة. لن أضجرك برحلتنا. لكنني أبينها لك في سبيل أن أُريك كيف وصلنا في النهاية إلى بلد قوم النار.

صرنا إلى النهر، ولم نعرف أن ذلك كان هو النهر القديم، نهرنا إياه. لقد قضينا في التيه وقتاً طويلاً للغاية حتى تقبلنا التيه كواقع حال. كلما نظرت إلى الوراء، يتبدى لي بوضوح أن حياتنا ومصائرنا تشكلها مصادفات خالصة. لم نعرف أن النهر هو نهرنا، فما من وسيلة لندرك ذلك، ولو لم نعبره مرة أخرى، لكانت عودتنا إلى قومنا محالاً في الغالب؛ وأنا الرجل الحديث، الذي سأولد بعد ألف قرن، ما كنتُ ولدتْ.

كنا نتلهف للعودة بشدة أنا ومسترخي الأذن. خبرنا مرض الحنين إلى الوطن في رحلتنا تلك، واستشعرنا التوق للرجوع إلى قومنا وأرضنا، وغالباً ما كانت تعاودني ذكرياتي عن السريعة، تلك الأنثى الصغيرة التي تُطلق أصواتاً لطيفة، وهي من يطيب لي التواجد قربها، والتي عاشت لوحدها في مكان لا يعرفه أحد. ذكرياتي عنها كانت مصحوبة بالإحساس بالجوع، جوع من نوع آخر، إحساس كنتُ أشعر به عندما لا أكون جائعاً، وقد أكلت للتو.

لكن بالعودة إلى النهر، كان الطعام وفيراً، وبالأخص التوت وجذور النباتات النضرة التي تختزن العصائر، وعلى ضفة النهر لعبنا ومكثنا لأيام. ثم خطر لمسترخي الأذن خاطر. كانت عملية التفكير عملية مرئية. رأيته، ورأيت في عينيه الحزن والنكد، وكان مضطرباً للغاية. ثم استحالت عينيه غائمتين، عندما فقد القدرة على قبض أفكاره، وقد صار هذا بعد الأسى والنكد فقد كانت الفكرة التي سيطرت

عليه جديدة كليا. نظر إلي، وإلى النهر، ثم إلى الشاطئ البعيد. حاول التحدث، لكن لم تكن ثمة أصوات يمكنها التعبير عن الفكرة. وكانت النتيجة رطانة جعلتني أضحك. أغضبه ذلك وامسكني فجأة والقى بي على ظهري. تشاجرنا بالطبع، ولاحقته في النهاية إلى شجرة، حيث لاذ بغصن طويل كان يطعنني فيه كل مرة أحاول فيها الوصول إليه.

ثم تضاءل بريق الفكرة وزالت عنه، لم اعرف ما هي، وبدا أنه قد نساها، لكن في الصباح التالي استبدت بهِ الفكرة مجدداً. ربما كانت غريزة الانتماء ثابتة فيه، وهي التي جعلت الفكرة قائمة. على أي حال كانت الفكرة هناك، وأكثر وضوحاً من ذي قبل. قادني إلى الماء، حيث غاصت الألواح في الدوامة، اعتقدت انه كان يفكر في اللعب كما لعبنا في مصب البركة، ولم أغير رأيي حتى بعد أن راقبته يسحب لوحاً ثانياً من مكان قصيّ من الشاطئ.

لم أعرف نيته، وصرنا على الألواح جنباً إلى جنب نتمسك بها سوياً، ونجذف بعيداً باتجاه التيار. توقف مؤقتاً للإشارة إلى الشاطئ البعيد وعاد لتجذيفه، وفي الوقت نفسه كان يرفع عقيرته بصيحات تشجيع صاخبة. فهمت إذ ذاك وجذفنا بطاقة. امسك بنا التيار السريع، وقذف بنا نحو الشاطئ الجنوبي ولكن قبل أن نتمكن من الوصول إليه، قذفنا مجدداً وعاد بنا باتجاه الشاطئ الشمالي.

هنا ثار الخلاف بيننا، برؤية الشاطئ الشمالي قريباً للغاية، بدأتُ بالتجذيف باتجاهه. وحاول مسترخي الأذن التجذيف باتجاه الشاطئ الجنوبي. دارت الألواح على نفسها في حلقة مفرغة، ولم نصل إلى أي مكان، وكانت الغابة تومض بعيداً عندما جرفنا التيار. لم نستطع العراك، كنا أكثر دراية من أن نفلت قبضة أيدينا وأرجلنا على الألواح. لكننا هذرنا وشتمنا بعضنا البعض بألسنتنا حتى قذفنا التيار باتجاه الضفة الجنوبية مرة أخرى. كان هذا الآن أقرب الاهداف وجذفنا بود سوياً صوبه. هبطنا مع المد وصعدنا مباشرة إلى الأشجار لاستكشاف المكان الذي حللنا فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

لم نُدرك حتى ليلة يومنا الأول على الضفة الجنوبية للنهر أننا صرنا إلى أرض قوم النار. لا بد أنهم كانوا عصبة من الصيادين الجوالين وقد خيموا في مكان ليس بالبعيد عن الشجرة التي اخترنها لنأوي لها في الليل. خوفتنا أصوات الرجال في أول الأمر، لكن عندما حل الظلام بعد ذلك، اجتذبتنا النار. فتسللنا بحذر وهدوء من شجرة إلى شجرة حتى تحصلنا على مكان جيد لمراقبة المشهد.

في فسحة بين الأشجار، بالقرب من النهر، كانت النار مشتعلة، وحولها نصف دزينة من قوم النار. تمسك بي مسترخي الأذن فجأة، كان بوسعي الشعور بهِ مرتعداً من الخوف. نظرت عن كثب، ورأيت الصياد العجوز الضئيل الذي أصاب السن المكسور من أعلى الشجرة، قبل سنين مضت. عندما نهض ومشى حولها، ملقياً بالخشب إلى النار، رأيت أنه عرج بساقه الكسيحة. أي كانت أصابته، فقد كانت عطباً دائماً. بدا أكثر جفافاً وضموراً عن ذي قبل، والشعر على وجهه صارَ رمادياً تماماً.

كان بقية الصيادين شباناً. لاحظت سهامهم وأقواسهم ملقاة على الأرض بالقرب منهم. وكنتُ أعرف أي أسلحة هي تلك. أرتدى رجال النار جلود الحيوانات حول خصورهم وعلى أكتافهم، إلا أذرعتهم وسيقانهم فقد كانت عارية ولم يرتدوا ما يغطي أقدامهم. كما قلتُ من قبل، لم يكونوا كقومنا- في كثافة الشعر على الجسد، ولم تكن لديهم رؤوس كبيرة، وبينهم وبيننا فرق ضئيل جداً في درجة انحدار الجبين فوق العين.

كانوا أقل انحداراً مني، وأقل ضجة في حركاتهم. عمودهم الفقري والورك ومفاصل الركبة بدت أكثر صلابة. لم تكن أيديهم بطول أيدينا كذلك، ولمْ أجدهم يوازنون أنفسهم أبداً في مشيتهم عن طريق لمس الأرض على الجانبين بأيديهم. كذلك بدت عضلاتهم أكثر تدويراً، وأكثر تناسقاً من عضلاتنا، ووجوههم أكثر لطفاً. فتحات أنوفهم كانت إلى الأسفل، وقد تطورت قصبة الأنف عندهم أكثر، لم تبد أنوفهم غليظة ولا مفلطحة جداً مثل أنوفنا. كانت شفاههم أقل ترهلاً ولا تتدلى مثل شفاهنا، وأنيابهم لم تبد كثيراً كالأنياب. ومع ذلك كانوا نحيفين للغاية مثلنا، لم يزنوا أكثر منا بكثير، وبأخذ كل شيء بعين الاعتبار، كانوا أقل اختلافنا منا في اختلافنا عن قوم الأشجار. بلا شك كانت الانواع الثلاث متقاربة، وأن علاقة القربى بيننا ليست بالقرابة البعيدة جداً.

كانت النار التي تحلقوا حولها جذابة بشكل خاص. جلسنا أنا ومسترخي الأذن لساعات، نراقب اللهب والدخان. أكثر ما سحرنا كان ذلك المشهد عندما يُلقى إليها بوقود جديد فتتطاير منها شلالات من الشرر نحو الأعلى. أردتُ أن اقترب وأنظرُ إلى النار، لكن هيهات، ما من سبيل لذلك. كنا نجثم على شجرة على حافة الفضاء المفتوح بين الأشجار، ولم نكن لنجرؤ على المخاطرة وكشف أمرنا.

قرفص رجال النار حول النهار وناموا ورؤوسهم محنية إلى الأمام عند ركبهم. لم يكن نومهم ثقيلاً، كانوا مضطربين وكانت آذانهم تتحرك في نومهم. بين هنيهة وأخرى يستيقظ أحدهم ويلقي للنار بمزيد من الحطب. كانَ الظلام يطوق الحلقة التي

صنعها الضوء، والحيوانات المفترسة تتجول في تلك العتمة. كان بوسعنا أن نعرف من الأصوات أن هناك كلاب برية وضباع، وكان هناك صوت عواء قوي وزمجرة كبيرة استمر الصوت لبعض الوقت وأيقظ كل رجال النار النائمين في الحلقة.

ووقف أسد ولبوة تحت شجرتنا وأمعنا النظر بأعينهم الوامضة، والشعر المنتصب. لعق الأسد مخالبه وقد كان متلهفاً حد الهياج وهو راغب بشدة أن يسرع بالمضي تجاههم وافتراس واحد منهم، لكن اللبوة كانت أكثر حذراً منه، كانت قد اكتشفت وجودنا. وقفَ الزوجان ونظرا إلينا بصمت، كانت مناخيرهما تختلج بينما يتشممان الروائح، زمجرا وهما يلقيان نظرة ثانية إلى النار ثم مضيا في سبيلهما إلى الغابة.

لبثنا نراقب الوضع لفترة أطول أنا ومسترخي الأذن، كان بوسعنا سماع تصادم أجساد ثقيلة في الغياهب وخلف الأحراش من حين لآخر. وعبر الجانب الآخر من الغابة، كان بوسعنا رؤية عيون تومض في الظلام وهي تحدق بالنار المشتعلة. تناهى إلى مسامعنا من بعيد صوت زئير الأسد، ومن مسافة بعيدة للغاية سمعنا صياح حيوان منكوب، سقط فريسة لحيوانٍ آخر وهو يتخبط عند موارد الشرب، ويرتفع صوت رذاذ الماء. ومن النهر أيضاً سمعنا صوت خوار عظيم لحيوان وحيد قرن.

في الصباح، بعد أن نلنا قسطاً من النوم، تسللنا إلى النار وكانت لا تزال تحترق، بينما ارتحل عنها قوم النار. درنا في حلقة عبر الغابة لنطمئن من رحيلهم، ثم ركضنا صوب النار. أردت أن أدرك كنهها فالتقطت جمرة متوهجة بين أصبع وإبهام. صرختي من الألم والخوف وأنا أُسقطها من يدي صدمت مسترخي الأذن وهرب مذعوراً وأنا في أثره.

في المرة التالية عدنا بحذر أكبر، وتجنبنا ملامسة الفحم المتوهج، قلدنا قوم النار. قرفصنا بحذائها وبرؤوس محنية على ركبنا قلدنا طريقتهم في النوم. ثم حاكينا أحاديثهم، وصرنا نتحدث مثلهم وكان لحديثنا رطانة كبيرة. تذكرتُ رؤية الصياد العجوز وهو يلكز النار بعصاه. لكزت النار بعصا، مخلفاً فوضى من الفحم المتوهج وسحابات من الرماد الأبيض. كانت تلك لعبة عظيمة، وسرعان ما غطانا الرماد بغلالة بيضاء.

كان محتماً أن نقلد رجال النار في تجديد النار. حاولنا في البداية مع قطع صغيرة من الأخشاب. وكان ذلك ناجحاً. اشتعلت الأشجار وطقطقت، ورقصنا وهرجنا بجذل. ثم بدأنا برمي قطع أكبر فأكبر من الأخشاب. وضعنا المزيد فالمزيد من الأخشاب حتى نشبت نار عظيمة. ركضنا بحماس ذهاباً وإياباً، نجر أطرافاً ميتة وأفرع من الغابة. ارتفعت النيران أعلى فأعلى، وارتفع عمود الدخان ليسابق قامات الأشجار العالية، كان هناك شرر كثير وأصوات تحطم وعصف هائل كان هذا العمل الأكثر ضخامة التي قامت به أيدينا وكنا فخورين به. رقصنا محتفلين مثل قزمين أبيضين في مهرجان، مؤمنين أننا من قوم النار.

اشتعلت النيران في العشب الجاف والشجيرات دونَ أن نلاحظ ذلك، على حين غرة اشتعلت النار في شجرة عظيمة كانت على حافة الفضاء المفتوح، التهمها اللهب بسرعة فنظرنا إليها بفزع، ودفعتنا الحرارة للتراجع، شجرة أخرى اشتعلت ثم أخرى ثم نصف دزينة. كنا مذعورين. لقد فك أسر المارد المُرعب فتكورنا على

الأرض بخوف بينما أكلت النيران دائرة الأشجار التي حولنا وطوقتنا. كانت هناك النظرة الحزينة إياها التي رافقت عدم الفهم في عين مسترخي الأذن. وأنا أعلم أن عيني لا بد أن تكونا قد اتخذتا النظرة ذاتها. تشابكت أذرعنا واحتضن كلانا الآخر، حتى بدأت الحرارة تصل إلينا وملأت خياشيمنا رائحة شعر محترق، فاندفعنا راكضين إلى غرب الغابة ننظر خلفنا بأقصى ما استطعنا ونحن نضحك.

مع انتصاف النهار وصلنا إلى رقبة الأرض والتي صنعها ـ كما اكتشفنا بعد ذلك ـ الانحناء العظيم للنهر الذي يكاد يكمل دائرة تقريباً. عبر تلك الرقبة كانت هناك بضعة تلال منخفضة تغطي الأعشاب جزء منها، تسلقنا فوق التلال ننظر إلى الغابة التي أصبحت بحراً من اللهب، وقد أكتسح اللهيب الغابة من جهة الشرق محمولاً على ريح قوية. تابعنا طريقنا باتجاه الغرب متتبعين جريان النهر، وقبل أن نعرف كنا في وسط موطن قوم النار.

كان قوم النار قد اختاروا لموطنهم خياراً استراتيجياً رائعاً. كانت شبه جزيرة، يحميها النهر الذي يطوقها من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة فكانت جهة اليابسة وهي التي تشكل الرقبة الضيقة لشبه الجزيرة، وها هنا كانت تتناثر بضعة تلال واطئة بمثابة الحدود الطبيعية، مما يجعل موطنهم معزولاً بشكل عملي عن بقية العالم. لابد أن قوم النار عاشوا وازدهروا هنا لفترة طويلة. في الواقع أظن أن ازدهارهم هو المسؤول عن الهجرة اللاحقة التي جلبت الكارثة على قومي. لا بد أن قوم النار قد ازدادت أعدادهم حتى صارت حدود موئلهم تضغط عليهم بشدة. كانوا يتوسعون وفي توسعهم قضوا على قومي وطردوهم، واستوطنوا الكهوف محتلين المناطق التي كنا نشغلها.

لكنني ومسترخي الأذن لم نحلم بذلك عندما وجدنا أنفسنا في معقل قوم النار. كانت لنا فكرة واحدة وهي الهروب بعيداً، رغم ذلك لم يكن بوسعنا تجاوز فضولنا، دون أن نسترق النظر إلى القرية. رأينا نساء وأطفال قوم النار للمرة الأولى. كان الأطفال يركضون عراة بشكل شبه كلي، مع أن الكبار كانوا يرتدون جلود الحيوانات البرية.

قوم النار مثلنا يعيشون في الكهوف. المسافة المفتوحة مقابل الكهوف تنحدر باتجاه النهار، وفي الفضاء المفتوح تم إشعال عدد من النيران الصغيرة. لكن هل طهى قوم النار طعامهم أم لا، فذلك ما لا أعرفه. أنا ومسترخي الأذن لم نرهم يطبخون، لكنهم مع ذلك قد قاموا بطقوس الطبخ البدائي. وقد كانوا يحملون الماء في اليقطين من النهر مثلنا. كان هناك الكثير من الغدو والرواح. وتنطلق من بينهم أصوات عالية تطلقها النساء والأطفال. كان الأطفال يلعبون ويمرحون بنفس الطريقة التي لعب بها أطفال قومنا. وقد كان الأطفال أكثر شبهاً بأطفالنا من تشابه الناضجين منهم مع القوم الناضجين منا.

لم نستمر أنا ومسترخي الأذن طويلاً. رأينا بعض الأولاد الناشئين يصوبون بالقوس والسهام، وتسللنا إلى الخلف إلى حيث الأحراش الكثيفة في الغابة وشققنا طريقنا باتجاه النهر. وهناك وجدنا طوفاً، طوفاً حقيقياً، من الواضح أنه صنع من قبل بعض رجال النار، كان عبارة عن لوحين صغيرين ومستقيمين ومشدودين إلى بعضهما عن طريق الجذرور القاسية وقطع متقاطعة من الخشب.

هذهِ المرة جاءت لنا الفكرة بشكل تلقائي في وقت واحد. كنا نحاول الهرب من أرض قوم النار. وماهي أفضل طريقة لعبور النهر غير هذهِ الألواح؟ تسلقنا على متن الطوف وانطلقنا. فجأة اجتذب شيء ما الطوف وانتفض بعنف ضد الضفة. كاد التوقف المفاجئ ان يُلقي بنا إلى الماء. كان الطوف مشدوداً إلى شجرة بواسطة حبل من الجذور الملتوية. قطعنا ذلك الحبل قبل أن ننطلق مجدداً.

بحلول الوقت الذي جذفنا فيه جيداً في التيار، كنا قد انجرفنا إلى أسفل النهر على مرأى ومسمع من مساكن قوم النار. كنا مشغولين للغاية بالتجذيف وعيوننا مثبتة على الضفة، ولم نُدرك ما يحدث حتى اثارتنا صيحة من على الشاطئ. نظرنا حولنا كان أولئك قوم النار، وقد تجمهر العديد منهم وهم ينظرون ويشيرون إلينا، وكان الكثير منهم يزحفون خارج الكهوف. جلسنا وراقبنا، ونسينا كل شيء عن التجذيف. كانت هناك ضجة هائلة على الشاطئ قام بعض الرجال بإخراج أقواسهم وسقط عدد قليل من السهام بجوارنا، لكن المسافة كانت كبيرة فلم تصبنا السهام.

كان يوماً رائعاً لي ولمسترخي الأذن. في الشرق كان الحريق الذي ابتدأناه يملأ نصف السماء بالدخان. وها نحن هنا، آمنين تماماً في وسطة النهر، نطوق معقل قوم النار. جلسنا وضحكنا منهم بينما انطلقنا نتأرجح تارة نحو الجنوب وتارة إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الشرق ثم إلى الشمال الشرقي، ثم إلى الشرق مجدداً، ثم نعود باتجاه الجنوب الشرقي وبعدها إلى الجنوب ثم درنا حول الغرب، في الانحناء العظيم للنهر وهو يكاد يعقد عقدة حول نفسه.

وبينما انجرف الطوف إلى الغرب، وقد صار قوم النار خلفنا. أضاء أمام أعيننا مشهد غاية في الألفة، كانت تلك أماكن ورود الماء، حيث تجولنا مرة أو مرتين لنشاهد مجاميع الحيوانات عندما تأتي للشرب. وخلف تلك الموارد كان حقل الجزر الذي نعرفه، ومن خلفه كانت الكهوف مأوانا الدائم. بدأنا بالتجذيف إلى الضفة وانزلقنا بسرعة، وقبل ان نعرف كنا عند مدارج الشرب التي استخدمها القوم. كانت هناك نساء وأطفال، حاملي الماء، يقومن بملء قرب اليقطين. وبمرآنا انصدموا وهربوا. تاركين ورائهم صفاً من نباتات اليقطين التي أسقطوها.

هبطنا وأهملنا طبعاً ربط القارب الذي طفا وانجرف نحو مجرى النهر. تسللنا مباشرة إلى ممرات الركض. اختفى كل القوم في جحورهم. ومع هذا كنا نرى هنا وهناك وجهاً يحدق بنا، لم تكن هناك علامة على العين الحمراء، كنا في الوطن مجدداً، نمنا في كهفنا الصغير أعلى المنحدر، على الرغم من انه كان علينا في البداية طرد زوج من الشباب الطائشين الذين اتخذوه مأوى لهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

جاءت الشهور ومضت، والمآسي في طي الغيب لم تحل بنا بعد، وفي تلك الأثناء أكلنا البندق وعشنا حياتنا. كانت سنة طيبة للغاية، كان البندق وفيراً للغاية، أتذكر أننا كنا نملأ جرار اليقطين بالبندق ونحملها إلى أماكن هجوعنا. نحتفظ بالبندق في الحفر بين الصخور، وبقطعة من حجارة كان نكسرها ونأكلها.

كان خريفاً عندما عدنا من رحلتنا الطويلة، وكان الشتاء الذي تلاه خفيفاً. قمت برحلات متكررة إلى جوار بيتي القديم بين الأشجار، وبحثت بشكل متكرر في المنطقة كلها بين مستنقع التوت الازرق وعند مصب البركة حيث تعلمنا التجذيف، ولم يكن بوسعي العثور على أيما أثر للسريعة. لقد اختفت، وكنتُ راغباً بالعثور عليها. كنتُ مدفوعاً إليها بجوع كما قد ذكرت، والذي كان شبيهاً بالجوع المادي، وإن كان الأمر يحدث في كثير من الأحيان عندما تكون معدتي ممتلئة. لكن بحثي كله كان سدى.

وعلى أيّ حال، لم تكن الحياة رتيبة في الكهوف. يجب أن نأخذ وجود العين الحمراء بعين الاعتبار. أنا ومسترخي الأذن لم نذقْ لحظة سلام إلا عندما نكون في حصانة كهفنا الصغير. على الرغم من توسعة المدخل التي قمنا بها، ظل المدخل ضيقاً فكنا نقلص أنفسنا لنمر عبره. ومع أن المدخل بقي يتوسع من وقت لآخر، لكنه لا يزال صغيراً بالنسبة للعين الحمراء وجسده الوحشي. لكنه لم يقتحم كهفنا مرة أخرى. لقد تعلم درسه جيداً، وكان يحمل على رقبته كتلة منتفخة تظهر المكان الذي أصابته فيه الصخرة. لم يختف هذا الورم أبداً، كان بارزاً بما فيه الكفاية لتراه من بعد، كانت السعادة تغمرني كل مرة أرى فيها الدليل على ما اقترفته يداي، وعندما أكون آمنا تماماً، كان مرآه يقودني للضحك.

صحيح أن القوم الاخرون لم ينجدونا عندما كان العين الحمراء على وشك تقطيعي أرباً أنا ومسترخي الأذن أمام اعينهم، لكنهم مع هذا تعاطفوا معنا. ربما لم يكن ذلك تعاطفاً بل السبيل الذي عبروا فيه عن كراهيتهم للعين الحمراء؛ على أي حال فقد كانوا يحذروننا دائماً من ظهوره. سواء في الغابة، أو عند مدارج الشرب، أو في الفضاء المفتوح قبالة الكهوف، كانوا دائماً سريعين في تحذيرنا. وهكذا كانت لنا اليد العليا بالاستفادة من العيون العديدة في عدائنا مع العين الحمراء.

كاد المرتد إلى الأصل هذا أن ينال مني ذات مرة، كان ذلك في الصباح الباكر، ولم يكن القوم قد استيقظوا بعد. كان أمراً مفاجئاً للغاية. سد عليّ طريق العودة للكهف وقبل أن أدري اندفعت إلى الكهف المزدوج حيث كان يراوغني مسترخي الأذن قبل سنوات طويلة مضت حين عرفته أول مرة. وحيث سلب اثنان من القوم راحة السن القاطع العجوز ذات يوم. وبحلول الوقت الذي مررت فيه خلال الممر الرابط بين الكهفين، اكتشفت أن العين الحمراء لم يكن خلفي. في اللحظة التالية أسرع إلى داخل الكهف قادماً من الخارج. انزلقت عائداً عبر الممر، وانطلق هو غدوه ورواحه بين الكهفين من الخارج، بينما تكرر هروبي منه عبر الممر.

طوقني هناك لنصف يوم قبل أن يكف عن مطاردتي. بعد ذلك عندما كنتُ ومسترخي الأذن نصل إلى الكهف المزدوج باطمئنان لا بأس به، لم نكن نتراجع

إلى المنحدر إلى كهفنا كلما ظهر العين الحمراء ـ بل كنا نراقبه حتى لا يقطع علينا خط التراجع.

كان ذلك الشتاء الذي قتل فيه العين الحمراء زوجته الاخيرة بسبب العنف والضرب المستمر. أطلقت عليه لقب المرتد إلى الأصل، لكنه كان أسوء من مجرد مرتد، فذكور الحيوانات الدنيا لم يكونوا يسيئون لرفيقاتهم أو يقتلوهن. في هذا الخصوص فأنا أعتبر أن العين الحمراء على الرغم من تخلفه الهائل وميله للأصل، كان دلالة على مجيء الإنسان، لأن ذكور الجنس البشري وحدهم من يقتلون رفيقاتهم.

وكما هو متوقع منه، مع هلاك زوجته أنطلق العين الحمراء للبحث عن زوجة أخرى. وكان قد اختار هذهِ المرة المغنية. كانت حفيدة نخع العظام العجوز، وابنة الأمرد. كانت صغيرة الحجم ولطيفة، معتادة على الغناء في مدخل كهفها عند الشفق، وكانت حديثة العهد بزواجها من الساق الملتوية. كان رجلاً هادئاً ولم يمل للشجار أو مزاحمة الرفاق. لم يكن مقاتلاً على الإطلاق. كان صغير الحجم وهزيلاً، ولم تكن قدماه نشطتين كبقيتنا.

لم يقم العين الحمراء قبل ذلك بارتكاب جريمة قتل أكثر فظاعة من هذهِ الجريمة. كان ذلك بالتحديد في نهاية اليوم، عندما بدأنا بالتجمع في الفضاء المفتوح قبل الصعود لكهوفنا. فجأة انطلقت المغنية إلى ممرات الركض من مدارج الشرب، يتبعها العين الحمراء. ركضت لزوجها، الساق الملتوية، كان المسكين خائفاً بشكل رهيب، لكنه كان بطلاً عرفَ أن الموت مصيره، لكنه لم يهرب، وقف مدمدماً وقد انتصب شعره وكشف عن أسنانه.

هدر العين الحمراء بغضب. أن يجرؤ أي واحد من القوم على التصدي له كان ذلك إهانة عنده. أطبقت يده الضخمة على عنق الساق الملتوية. غرس الأخير أسنانه في ذراع العين الحمراء؛ لكن في اللحظة التالية كان الساق الملتوية يتلوى ويتخبط على الأرض برقبة مكسورة. هاجت المغنية وصاحت، قبض العين الحمراء على شعرها وجرها إلى كهفه.

أستبد بنا غضب جنوني، ضربنا صدورنا وقد انتصب الشعر على جلودنا ورحنا نكشر عن أسنانا، جمعنا الهياج. وشعرنا بغريزة التجمع، بالرغبة للاتحاد سوياً والقيام بعمل واحد، بحافز نحو التعاون. تلك الحاجة للعمل الجماعي لصالح المجموعة أثرت فينا بشكل باهت. فلم تكن هناك من طريقة لتحقيق ذلك التعاون لأنه لم يكن عندنا من طريقة للتعبير عنه. لم يخطر لنا أن نتوجه للقضاء على العين الحمراء، لأننا افتقرنا للمفردات. كنا نفكر بشكل غامض حيث لم تكن ثمة رموز للتفكير. رموز التفكير هذهِ كانت لا تزال يتم اختراعها ببطء وألم.

حاولنا شحن الصوت بالأفكار الغامضة التي طفت مثل الظلال عبر وعينا. بدأ الأمرد بالثرثرة بصوت عال. ومن ذلك الصوت عبر عن غضبه من العين الحمراء ورغبته في إيذاء العين الحمراء. وهذا أبعد ما وصله، وهذا أبعد ما فهمناه. لكن عندما حاول التعبير عن الدافع التعاوني الذي حركه، أصبحت ضجته رطانة بلا معنى. ثم بدأ ذو الوجه الكبير يضرب صدره وهو يثرثر وفد انتصب شعره. واحداً تلو الآخر انضممنا إلى الموكب الغاضب المهتاج، حتى بدأ نخع العظام العجوز بالغمغمة وصار يثرثر بصوته المتصدع وشفتيه الذابلتين. استولى أحدهم على

عصا وبدأ يدق بها على كتلة خشبية، وخلال لحظات أبتكر إيقاعا من ذلك الطرق. دون أن نعي ذلك صارت صيحاتنا وهتافاتنا تتناغم مع هذا الإيقاع. كان لذلك الإيقاع تأثير مهدئ علينا، وقبل أن نعرف ذلك، نسينا غضبنا، كنا على قدم وساق في مجلس الـ«هي هي».

توضح مجالس «الـهي هي» اللامنطقية واللاترابط عند قومنا. كنا هناك مجتمعين سوياً بغضب مشترك وفينا الدافع باتجاه التعاون، ثم صار كل ذلك طي النسيان بافتعال إيقاع ساذج. كنا اجتماعيين ومحبين للتجمع، وكانت مجالس الغناء والضحك تلك ترضينا. بطريقة ما كانت مجالس الـــ»هي هي» بادرة إنشاء مجالس الإنسان البدائي والجمعيات الوطنية العظيمة والاتفاقات الدولية لإنسان العصر التالي. لكننا قوم من عالم يافع، عالم افتقر للكلام، وحيثما تجمعنا سوياً في مكان كنا سرعان ما نصير مثل بابل([10])، من مجالسنا كان يتصاعد إيقاع جماعي، وهو لبنة الأساس لفن لم يأت بعد. كانت مجالسنا بذرة لولادة الفن.

سرعان ما كان الإيقاع يُفقد، ويعلو الهرج حتى نتمكن من العثور على إيقاع جديد والبدء من جديد. في بعض الأحيان تلوح نصف دزينة من الإيقاعات في وقت واحد، كل إيقاع تدعمه مجموعة تحاول بحماس أن ترفع صوتها لتغطي على الإيقاعات الأخرى، وتسود عليها.

في فترات الفوضى، يصير لكل منا ثرثرة وقطع وانخفاض وارتفاع ورقص مكتفياً بذاته، ممتلئاً بأفكاره الخاصة ورغباته كأنه مركز الكون منفصلاً عن مراكز الكون الباقية وهم يتصايحون ويدورون حوله. ثم يأتي الإيقاع، تصفيق من الأيادي، وعصا تضرب على لوح، والاقتداء بواحد منهم وهو يقوم بالقفز أو تكرار صوت معين وغناءه مرة تلو الأخرى «ابانغ! ابانغ! ابانغ!» واحداً تلو الاخر يصيح كل واحد من مكانه، وسرعان ما يكون هناك رقص وهتاف في جوقة «ها ــ اه، ها ــ اه، ها ــ اه ــ ها» كانت تلك اللازمة واحدة من جوقاتنا المفضلة وكانت الأخرى «ايه ــ واه، ايه ــ واه، ايه ــ واه ــ هاه»

وهكذا بغرابة مجنونة تجدنا نقفز ونترنح غير متوازنين ونرقص ونغني في كآبة الشفق في العالم البدائي، ننشد النسيان متآلفين فيما بيننا، ونقود أنفسنا إلى هيجان حسي. وهكذا كان غضبنا ضد العين الحمراء قد هدأ بفضل الفن، وبقينا نصيح صيحات جماعية عنيفة في مجلس الـــ»هي هي» حتى تنبهنا لقدوم الليل ورعبه. تسللنا إلى ثقوبنا في الصخور، ننادي بهدوء على بعضنا البعض بينما بدأت النجوم بالظهور وقد أرخى الليل سدوله.

كنا نخاف الظلام، لم تكن لدينا جراثيم الدين ولا مفهوم العوالم غير المرئية. عرفنا العالم الحقيقي فقط، والأشياء التي كنا خائفين منها كانت أشياء حقيقية، أخطار فعلية، كنا نخاف الحيوانات المفترسة التي هي من لحم ودم، جعلتنا تلك الحيوانات نخاف من الظلام. لأن الظلام كان وقتها المفضل للصيد. في ذلك الوقت كانت تخرج تلك الحيوانات من جحورها وتترصد بالمرء عبر الظلام، متخفية في ستر الليل وغير مرئية.

ربما من هذا الخوف من المقيمين الحقيقين في الظلام نما الخوف من غير الواقعي فيما بعد وتجمع في عالم مكتمل وهائل. ومن المرجح أن الخوف من الموت ازداد مع نمو المخيلة البشرية، حتى صار القوم يسقطون ذلك الخوف على الخوف من الظلام فحشروه بالأشباح. أعتقد ان الخوف من الظلام قد بدأ أساساً بهذهِ الطريقة، لكن السبب الذي قاد قومنا في حينها لفض مجلس الـــ«هي هي» والفرار إلى جحورنا، كان خوفاً من أشياء ملموسة، كان الخوف من السن القاطع العجوز ومن الأسود وبنات آوى والكلاب البرية والذئاب وكل السلالات الجائعة المتهيئة لافتراس اللحم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

تزوج مسترخي الأذن. كان ذلك في الشتاء الثاني بعد رحلة المغامرة، وكان أمراً غير متوقع بالمرة. لم ينبهني قبلها أبداً. أول ما عرفت بالأمر كان الغروب قد حل فتسلقت المنحدر إلى كهفنا. حشرت نفسي في المدخل وتوقفت هناك. لم يكن ثمة مكان لي. كان مسترخي الأذن ورفيقته يحتلان الكهف، ولم تكن قرينته سوى أختي، أختي نصف الشقيقة من الثرثار.

حاولت أن أشق طريقي بالقوة، كانت المساحة لاثنين فقط، وكانت تلك المساحة مشغولة مسبقاً. هاجموني وأنا في وضع سيء، محشوراً عند المدخل، وياللأذى الذي نلته من خدش وجذب الشعر، حتى أنني كنت سعيداً للتراجع. نمت تلك الليلة وفي عديد من الليالي بعدها في الممر الواصل بين الكهف المزدوج. من خلال خبرتي بدا لي آمنا بشكل معقول. فمن خلاله تهرب الرفيقان من قاطع السن العجوز، وكذلك فعلت مع العين الحمراء. بدا لي أنه كان بوسعي أن أهرب من الحيوانات المفترسة بالتنقل ذهاباً وإياباً بين الكهفين. كنتُ قد غفلت عن أمر الكلاب البرية، فقد كان حجمها صغيراً بما فيه الكفاية لتمر عبر أي ممر أستطيع أن انحشر فيه. في ليلة تشممني من الخارج، ودخلت كلا الكهفين في الوقت ذاته لقد نالت مني. كما لو كنت متبوعاً ببعضهم عبر الممر، انطلقت إلى الكهف الثاني. وخارجه كانت بقية الكلاب البرية. لقد تأهبت لافتراسي وما إن قفزت لجدار المنحدر وبدأت بالتسلق، حتى كان هناك كلباً برياً متوحشاً جائعاً وهزيلاً، امسكني في منتصف القفزة. انغرست اسنانه في عضلات فخذي بالتحديد، وجرني إلى الوراء. أمسكني بقوة، لكنني لم أبذل جهداً لإزاحته، كرست كل جهودي الباقية للتسلق عن متناول بقية المتوحشين.

لم أعر انتباهاً لذلك الألم الرهيب في فخذي إلا بعد أن صرتُ في مأمن من تلك الوحوش. ومن ثم حين صرت على بعد عشرين قدماً فوق حزمة العضاضين التي قفزت وتدافعت نحو الجدار، وسقطت بعدها. عندها أمسكت بالكلب من رقبته وخنقته ببطء أستغرقني ذلك وقتاً طويلاً كان هو في غضون ذلك مستمراً بغرس مخالب قوائمه الخلفية في جلدي وهو يجرحني ويقطع شعري، وأخذ يهتز وهو يحاول أن يجرني بوزنه إلى الجدار البعيد. ثم حلت نهايته فانفرجت اسنانه وأفلت لحمي الممزق، حملت جسده معي حتى المنحدر وقضيت الليل عند مدخل كهفي القديم الذي كان يحتله مسترخي الأذن وأختي. لكن كان عليّ قبلها أن أتحمل عاصفة من السباب من الحشد المهتاج من القوم لكوني سبب الهياج. كنت من وقت لوقت أنتقم لنفسي من حزمة الكلاب في الأسفل كل مرة تهدأ فيها أصواتهم برميهم بالحجارة، وهكذا كانوا يعودون للهياج من جديد. وعندها كانت شتائم القوم الغاضبون تنهال عليّ من كل جهة مرة أخرى. في الصباح تشاركت الكلب مع مسترخي الأذن وزوجته، ولبضعة أيام كنا نحن الثلاثة نأكل منه ولا نحتاج للفواكه ولا الخضار.

لم يكن زواج مسترخي الأذن زواجاً سعيداً، والعزاء في ذلك أنه لم يستمر طويلاً. لم أكن لا أنا ولا هو سعيدين في تلك الفترة. كنتُ وحيداً وقد أزعجني أن يتم طردي من

كهفي الصغير الآمن، وبطريقة ما لم اندمج مع باقي الذكور الشباب، افترض أن المكوث الطويل مع مسترخي الأذن صار عادة.

كان بوسعي التزاوج، ذلك صحيح، وكنتُ سأتزوج في الغالب لولا شحة الاناث في قطيعنا. هذهِ الندرة التي من العدل أن نفترض أن سببها كان إسراف العين الحمراء، والذي وضع قبيلتنا في خطر الانقراض. وكانت هناك السريعة، والتي لم أنسها.

على أي حال، خلال فترة زواج مسترخي الأذن تنقلت من مكان إلى آخر، لم أكن أستطيع النوم براحة في الليل قلقاً من الخطر الذي يتهددني. حتى توفي أحد القوم وانتقلت أرملته إلى كهف ذكر آخر، فحزت على الكهف المهجور. لكنه كان كهفاً واسع المدخل وبعد أن كاد يقضي عليّ العين الحمراء فيه، عدت للنوم عند الممر في الكهف المزدوج.

وعند الصيف اعتدت البقاء بعيداً عن الكهوف لعدة أسابيع، أنام على ملجأ الشجرة الذي بنيته قرب مصب البركة.

كما قلت فأن مسترخي الأذن لم يكن سعيداً. ذلك أن أختي هي ابنة الثرثار قد ورثت خصال والدها وجعلت حياة مسترخي تعيسة. لم يكن هناك من كهف فيه هذا القدر من الشجار والمشاحنات. مع كون العين الحمراء بفظاعة ذي اللحية الزرقاء([11]) ومسترخي الأذن لم يكن سوى دجاجة خائفة؛ رغم ذلك كان العين الحمراء أكثر دهاء من أن يتطلع لزوجة مسترخي الأذن.

لحسن حظ مسترخي الأذن فقد ماتت زوجته. أمر غير عادي حدث في وقت متأخر من ذلك الصيف، عند نهاية الفصل تقريباً نما محصول ثان من الجزر. كان ذلك المحصول الثاني غير المتوقع يانعاً وغنياً بالعصارة ولذيذاً. وسرعان ما صار حقل الجزر مكان التغذية المفضل لدى القوم. في إحدى الصباحات الباكرة، كان عدد منا يتناولون الإفطار كان على جانبي الأمرد، ومن خلفه والده نخع العظام العجوز وولده ذا الشفة الكبيرة. وعلى الجانب الاخر كانت هناك أختي ومسترخي الأذن، كانت هي إلى جواري.

ثم وبلا سابق تحذير قفز الأمرد وأختي في وقت واحد صارخين. وفي اللحظة ذاتها سمعت أزيز السهام التي انغرست فيهما. وفي اللحظة التالية سقطا على الأرض كليهما، يتلويان ويتألمان، بينما قفز بقيتنا إلى الأشجار. مر بجانبي سهم وانغرس في الأرض نهايته المريشة اهتزت وتأرجت ومن تأثير توقفها المباغت. أتذكر بوضوح كيف ركضت بسرعة، وكيف انحرفت في مسيري بعيداً وأنا أمر بجانبه دون داع لذلك. لا بد أني فزعت من تلك السهام كما يفزع حصان من شيء يخشاه.

سقط مسترخي الأذن سقطة مدوية وهو يركض إلى جانبي. فقد اندفع سهم في ربلة ساقه واسقطه. حاول الركض، لكنه تعثر ووقع مرة ثانية. جلس مرتعداً من الخوف ونادى عليّ بحزن. أسرعت إليه. أراني السهم. فأمسكت به لسحبه، لكن الاذى الذي تسببت به جعله يمسك يدي، سحبها بعيداً ليمنعني. مر بيننا سهم طائر، ثم مر آخر واصطدم بصخرة وتحطم وسقط إلى الأرض. كان ذلك كثيراً عليّ، لم أحتمل البقاء سحبت السهم بكل قوتي بشكل مفاجئ، صرخ مسترخي الأذن بينما كان السهم يخرج من لحمه ولطمني بغضب. لكن في اللحظة التالية كنا نهرب مجدداً.

نظرتَ إلى الوراء كان نخع العظام العجوز ترك إلى الخلف مهجوراً، يرتجف بصمت في سباقه العاجز مع الموت. كان على وشك السقوط عدة مرات، وسقط فعلاً ذات مرة؛ لكن لم تهاجمه المزيد من السهام، تعثر بضعف قدميه، كان مثقلاً بالحمل الثقيل لسنوات الشيخوخة، لكن لم تكن به رغبة للموت، رجال النار الثلاثة الذين كانوا يركضون الآن من مكمنهم في الغابات، كان بوسعهم ان يقبضوا عليه بسهولة، لكنهم لم يتوجهوا إليه ربما لأنه كان عجوزاً للغاية لا فائدة منه. أرادوا الأمرد وأختي، وعندما نظرت ورائي عبر الأشجار استطعت أن أرى رجال النار وهم يهشمون جمجمتيهما بالحجارة. أحد رجال النار كان هو ذات الصياد العجوز المتهالك الذي يعرج في مشيته.

ذهبنا عبر الأشجار باتجاه الكهوف مجموعة مضطربة مهتاجة بلا تنظيم، دفع هذا الهياج بكل الحيوانات الصغيرة لتفر من أمامنا لتلوذ بجحورها، وقد قاد هذا طائر الزرياب الأزرق([12]) للصياح علينا بوقاحة. وعندما أنتهى الخطر، وقف ذا الشفة الكبيرة منتظراً جده، نخع العظام العجوز، وقدد جسرت الأصوات التي نشأت بين العجوز وحفيده الفجوة بين الاجيال، وسارا معاً في مؤخرة الحشد.

وهكذا صار مسترخي الأذن أعزب مجدداً، في تلك الليلة نمت معه في الكهف القديم وعدنا إلى حياتنا القديمة مجدداً. لم يبد أن فقدانه لقرينته قد سبب له حزناً، لم يبد علامة يمكن ملاحظتها على الأقل. لم يزعجه سوى الجرح البليغ في ساقه، مر اسبوع كامل قبل أن يعود إلى سابق عهده في نشاطه وخفة حركته.

نخع العظام كان الفرد العجوز الوحيد في قومنا. أحيانا عندما استعيد ذكراه، وتكون صورته واضحة للغاية ـ الاحظ وجود تشابه صارخ بينه وبين والد البستاني الذي يعمل عند أبي. كان والد البستاني رجلاً عجوزاً للغاية، ضأمراً كثير التجاعيد، وعندما كان يحدق بعينيه الصغيرتين الغائمتين وهم يتمتم بلثته التي بلا اسنان، كان يبدو ويتصرف كنخع العظام العجوز. هذا التشابه كان يخيفني في طفولتي. كنت دائماً أهرب ما أن أرى العجوز يترنح بعصاه. بل كانت لنخع العظام العجوز لحية بيضاء بشعيرات متناثرة بدت متطابقة مع شوارب وسوالف الرجل العجوز.

كما قلت كان النخع العظام المسن الوحيد في الحشد. وقد كان استثناء. لم يعش القوم أبداً لعمر طويل. الوصل إلى متوسط العمر كان أمراً نادراً للغاية. الموت العنيف كان السبيل الأكثر شيوعاً للموت. لقد مات الجميع مثلما مات أبي، ومثلما مات السن المكسور وكما ماتت أختي كما مات الأمرد للتو، فجأة وبشكل وحشي. وهم بكامل أهليتهم للحياة، وهم منغمسين في حيواتهم. الموت الطبيعي؟ الموت العنيف كان هو السبب الطبيعي للموت في تلك الأيام.

لم يمت أحد بسبب الشيخوخة. لم أشاهد حالة كتلك، حتى نخع العظام نفسه لم يمت بشكل طبيعي، وكان الوحيد في ذلك الجيل ممن كانت لهم فرصة ليحققوا ذلك. ذلك أن اي تأرجح خاطئ من على شجرة، أي حادث خطير أو إعاقة مؤقتة لقدرتهم كان معناها الموت السريع. كقاعدة لم تكن هذهِ الميتات يتم مشاهدتها. عدد كبير من الحشد تلاشوا عن الأنظار ببساطة. كانوا يخرجون من كهوفهم في الصباح، فلا يعودوا أبداً. كانوا يغيبون في بطون الحيوانات المفترسة.

كان غزو قوم النار على بقعة الجزر بداية النهاية، إلا أننا لم نحزر ذلك. بدأ صيادو قوم النار بالظهور بشكل أكثر تكراراً بمرور الوقت. كان يجيئون أزواجاً أو ثلاثة ثلاثة فيتسللون بهدوء عبر الغابة، برفقة أسهمهم الطائرة كانوا قادرين على التغلب على المسافات وإسقاط الفريسة من أعلى شجرة بعيدة دون ان يتسلقوا الشجرة بـنفسهم. وكان القوس والسهم أشبه بزيادة هائلة في الحجم لقدراتهم وعضلاتهم، لقد مكنتهم من القفز والقتل وهم على بعد مائة قدم أو أكثر. جعلهم هذا أكثر فظاعة من السن القاطع العجوز، وفوق ذلك كانوا غاية في الحكمة. كانت لهم أصوات أفضل منا مكنتهم بشكل أكثر فعالية على الفهم، وقد كانوا يفهمون التعاون بالإضافة لكل ذلك.

أما نحن فقد صرنا أكثر حذراً في الغابة. كنا أكثر يقظة وتنبهاً وترهباً. لم تعد لدينا في الأشجار حماية يمكن الاعتماد عليها. لم يعد بإمكاننا أن نجلس على فرع ونضحك على أعدائنا أكلة اللحوم على الأرض. كان قوم النار آكلي لحوم، مع أنياب ومخالب طولها مائة قدم، وهم أفظع من كل حيوانات الصيد التي مرت في العالم البدائي. في إحدى الصباحات، قبل أن يتفرق قومنا، كان هناك ذعر بين حاملات الماء وبين من كانوا قد نزلوا إلى النهر للشرب. هرب الجميع إلى الكهوف. كانت تلك عادتنا في مثل هذهِ الاوقات. الفرار أولاً ثم التحقق فيما بعد. انتظرنا عند مداخل كهوفنا وراقبنا. بعد بعض الوقت توقف رجل من قوم النار بحذر في البقعة المفتوحة. كان ذلك هو الصياد العجوز نفسه. وقف لوقت طويل وراقبنا وهو يجيل النظر إلى الكهوف والمنحدر، صعوداً وهبوطاً. نزل من ممرات الركض إلى مدارج الشرب، وعاد بعد بضعة دقائق إلى ممر ركض آخر. وقف وراقبنا بعناية لفترة طويلة، ثم دار على كعبه وعرج إلى الغابة، وتركنا ننادي على بعضنا البعض بخوف وآسى شديدين من أماكنا عند مداخل الكهوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

وجدتها في المكان القديم بالقرب من مستنقع التوت الأزرق، حيث عاشت أمي وحيث بنيت أنا ومسترخي الأذن أول ملجأ أشجار لنا. كان أمراً غير متوقع بالمرة.

عندما وصلت أسفل الشجرة سمعت صوتاً لطيفاً مألوفاً ونظرت إلى الأعلى، هناك كانت السريعة، تجلس على غصن شجرة وهي تأرجح ساقيها جيئة وذهاباً وتنظر إلي.

وقفتُ ساكناً لبعض الوقت. جعلني مرآها غاية في السعادة. ثم بدأ الضيق والألم يزحف إلى تلك السعادة.

بدأت بتسلق شجرة للوصول إليها، وتراجعت هي ببطء عن الجذع. ما إن وصلت لها حتى قفزت في الهواء وحطت على جذع الشجرة المقابلة. ومن بين الأوراق المتساقطة، أطلت برأسها وأطلقت أصواتاً وديعة، قفزت باتجاهها مباشرة، وبعد مطاردة مثيرة تكرر الوضع، هناك كانت هي تطلق أصواتاً ناعمة وتحدق من أوراق شجرة ثالثة.

كان في مطاردتنا هذهِ شيء مختلف إلى حد ما عن تلك الأيام الخوالي قبل أن نذهب أنا ومسترخي الأذن في رحلتنا. أردتها وكنتُ أعرف برغبتي فيها، وهي عرفت ذلك. لذت لم تسمح لي أن اقترب منها. نسيت أنها كانت السريعة فعلاً وقد كانت هي أستاذتي في فن التسلق. لاحقتها من شجرة إلى أخرى، وكانت تزوغ مني دائماً، ثم تعود لتحدق إلى الوراء بعيونها اللطيفة نحوي، مطلقة أصواتاً ناعمة، وهي ترقص وتقفز وتتأرجح قبالتي غير أنها ظلت بعيدة المنال.

كلما ابتعدت عني زادت رغبتي باللحاق بها أكثر، والظلال المستطيلة لما بعد الظهيرة تشهد على عقم مسعاي.

أثناء ملاحقتي لها، أو حين أستريح على شجرة مجاورة وأراقبها. كنتُ الاحظ التغيير الذي طرأ عليها. صارت أكبر، أضخم وأكثر نضجاً. صارت خطوطها أكثر استدارة وعضلاتها أكثر امتلاء، وكان فيها شيء أعجز عن تسميته، نوع جديد عليها من النضج زاد من رغبتي فيها. اختفت لثلاث سنوات على أقل تقدير، وكان التغيير ملحوظاً عليها. أقول ثلاث سنوات، وهو أقرب ما يمكن قياسه من الوقت، فقد انقضت السنة الرابعة على اختفائها، والتي اشتبه أحياناً بأحداثها مع أحداث السنوات الثلاث الأخرى. لكن كلما فكرت أكثر كلما زادت ثقتي بأن أربع سنوات لا بد أن تكون قد انقضت على غيابها.

إلى أين ذهبت؟ لماذا ذهبت؟ ما الذي حدث لها خلال تلك الفترة، لم تكن ثمة وسيلة لتخبرني بها، كما لم يكن لدينا أنا ومسترخي الأذن طريقة لنخبر القوم عما خبرناه في غيابنا عنهم، من المحتمل أنها ذهبت في رحلة مغامرة مثلما فعلنا ولوحدها. من ناحية أخرى، يمكن أن يكون العين الحمراء هو سبب رحيلها. لا ريب أنّه كان يصادفها من حين لآخر، متجولة في الغابات؛ ولو حدث ولاحقها، فليس مستبعداً أن يكون ذلك دافعاً كافياً لرحيلها بعيداً. قادتني بعض الأحداث بعد ذلك للاعتقاد بأنها قد ارتحلت بعيداً إلى الجنوب، عبر سلاسل الجبال وحطت عند ضفاف نهر غريب، بعيداً عن أي جماعة من نوعها.

يعيش هناك العديد من قوم الأشجار، واعتقد آن ذلك هو ما حدا بها للعودة مجددا إلى القطيع ولي أسبابي لهذا الاعتقاد، وهي أسباب سوف أُفصلها لاحقاً.

استطالت الظلال، وسعيت إليها بحماس أكثر من أي وقت مضى، وما زلت مع ذلك عاجزاً عن اللحاق بها. جعلتني أُصدق أنها تكابد الأمرين للهروب مني، دائماً ما تمكنت بالظهور كما لو كنتُ على وشك الإمساك بها، دون أن تمكنني من ذلك فعلاً. نسيت كل شيء، الوقت، والليل الذي على وشك أن يحل، وأعدائي أكلة اللحوم.

كنت مجنوناً بحبها، ومجنوناً بالغضب أيضاً لأنها لا تسمح لي بالاقتراب منها. غريب كيف أن هذا الغضب منها كان يبدو جزءاً من رغبتي فيها. لقد نسيت كل شيء مثلما أسلفت. في السباق معها عبر المسافات المفتوحة ركضت دورة كاملة في مستعمرة للثعابين. لم تردعني الثعابين، فقد صرتُ مجنوناً. هاجمتني، لكني نفذت منها وهربت راكضاً. حتى أنني صادفتُ ثعباناً ضخماً، لو صادفته في وضع طبيعي لركضت منه فزعاً أبحث عن أعلى شجرة في الغابة، صادفته ولم أقفز منه، فقد كانت السريعة تغيب عن ناظري، ركضت على الأرض ماضياً في طريقي.

كانت الأرض قليلة العشب. ثم رأيت عدوي القديم، الضبع، وقد تبين من سلوكي أن شيئاً ما على وشك الحدوث، فتبعني على مدى ساعة كاملة. ثم استفززنا بمرآنا عصبة من الخنازير البرية التي لاحقتنا. عندها بدأت السريعة تتجرأ على القفز لقفزات واسعة، أكبر مما أستطيع محاكاته. اضطررت للنزول إلى الأرض، دون أن أعبأ بوجود الخنازير البرية.

هبطت إلى الأرض على بعد ياردة فقط من أقرب خنزير. فأحاطت بي جميعها بينما كنتُ أركض، ولاحقتني حتى قفزت إلى أشجار بعيدة عن مسرى ملاحقتي للسريعة. فغامرت إذ ذاك بالنزول إلى الأرض مجدداً، ومرة أخرى بدأت الركض عبر الفسحة الواسعة المكشوفة بلا أشجار، وعصبة كاملة من الخنازير البري في إثري وهي تصيح وتخور بهياج تام.

لو حدث وتعثرت على تلك الحالة أو وقعت في الفضاء المفتوح، فلنْ تكن لدي أدنى فرصة بالنجاة. لكنني لم اتعثر، ولم يهمني ما سيحصل لو تعثرت. كنتُ في حالتي تلك قادراً على مواجهة السن القاطع العجوز نفسه، أو عدد من رجال النار هم وسهامهم. هكذا كان جنون الحب عندي.

أما السريعة فلم تكن بمثل جنوني. كانت حكيمة للغاية، لم تخاطر فعلياً، استذكر مطاردة الحب البري تلك متمعناً فيها وبيني وبينها القرون، وأذكر أنها لم تهرب بسرعة، بل انتظرت عندما أعاقتني الخنازير البرية عن مطاردتها، ربما كانت تنتظرني حتى أُكمل سعيي إليها من جديد. كما أنها غيرت اتجاهها عدة مرات حتى أكون دائماً خلفها في الاتجاه التي تريد هي الذهاب فيه. وأخيراً حل الظلام، فتبعتها إلى الكتف المطحلب لوادٍ ظهر بين الأشجار. توغلنا في مسيرنا عبر شجيرات واطئة كثيفة والتي خدشتني ومزقت جلدي في مروري بينها.

لكنها لم تصب قيد أنملة. لقد كانت تعرف الطريق. في وسط الأحراش كانت هناك شجرة بلوط كبيرة. كنت قريباً جداً منها بينما كانت تتسلقها وعند تفرع أغصان الشجرة، وها هنا كان الملجأ الذي بقيت لزمن طويل متلهفاً وبشدة كي أعرف مكانه، ولحقت بها أخيراً.

كان الضبع قد عاد يقتفي أثرنا من جديد، وها هو ذا جالس على الأرض يطلق أصوات الجوع. لم نكترث له، وضحكنا منه وهو يكشر عن أنيابه ليمضي بعدها بعيداً بين الأحراش. كان ذلك الفصل فصل الربيع، وقد تنوعن الأصوات في الليل وتباينت. وكما هو متوقع في هذا الوقت من السنة كان هناك الكثير من القتال بين الحيوانات. كان بوسعنا ونحن قابعين في عشنا أن نسمع صهيل الخيول البرية وهو يرتفع، وصوت الفيلة تصيح، وزئير الأسود. إلا أن القمر المكتمل، ودفء الجو شغلانا عن كل ذلك، فضحكنا دون وجل.

أتذكر صباح اليوم التالي كيف صادفنا ديكان أشعثان يتصارعان بحماسة أمسكت بهما ودققت عنقيهما، وكان ذلك إفطارنا أنا والسريعة في صباح زواجنا.

كانا لذيذين للغاية، من السهل اصطياد الطيور في فصل الربيع. في ليلة من تلك السنة حدث أن أقتتل اثنان من الأيائل تحت ضوء القمر، كنا أنا والسريعة نراقب المعركة من بين الأشجار، فرأينا أسداً ولبوة يتسللان خافضي الرأس، دون أن يلفتا الانتباه، ليفترساهما وهما في خضم الصراع.

لا دراية عندي بالوقت الذي قضيناه سوياً على تلكَ الشجرِة، لكن حدث في يوم ما أن أصاب البرق شجرتنا بينما كنا بعيدين عنها، تسبب ذلكَ في تحطم الأفرع الكبيرة وتهدم العش. شرعت في إعادة بناء العش، أما السريعة فلم ترغب بذلك بالمرة.

وأدركتُ فيما بعد أنها تخشى البرق خشية لا مثيل لها، لم يكن بمقدوري إقناعها بالعودة إلى الشجرة مجدداً. وهكذا انتهى شهر عسلنا، وذهبنا لنقيم في الكهف. ومثلما أخرجني مسترخي الأذن من الكهف عندما تزوج، أخرجته أنا والسريعة بعد أن أستقر بنا المقام فيه، فكان عليه أن ينام في الممر الواصل بين جزئي الكهف المزدوج.

ومع عودتنا للعيش مع القوم حلت علينا المتاعب. لا أدري كم بلغ عدد زوجات العين الحمراء بعد المغنية فقد فارقت الحياة مثل من سبقنها.

عنده في الوقت الحاضر زوجة صغيرة، ناعمة، بلا حول ولا قوة كانت تنوح وتبكي طوال الوقت، سواء أكان يضربها أم لا. ولم يطل بها العهد قبل أن تموت هي الأخرى، وحتى قبل أن تموت كان العين الحمراء قد استقرت أنظاره على السريعة، وعندما ماتت، بدأت مضايقاته للسريعة.

من حسن حظها أنها كانت السريعة، وأنّ لها تلك القابلية المدهشة على الهرب السريع عبر الأشجار. كانت بحاجة لكل حكمتها وشجاعة كي تتمكن من النفاذ من براثن العين الحمراء، ولم أستطع مساعدتها، لقد كان وحشاً شديد القوى، قادراً على تمزيقي إرباً إربا.

بقيتُ حتى وفاتي أكابد آلاماً من كتف مصابة، ويشتد وطء الألم ليقعدني عن الحركة في الأيام الماطرة، وذلك كله من صنيع يديه.

كانت السريعة مريضة في الوقت الذي تلقيتُ عنها تلكَ الإصابة. لا بد أنها كانت تعاني من الملاريا التي كنا نصاب بها بعض الأحيان؛ ولكن أياً كان سبب مرضها، فقد جعلها خاملة وثقيلة. لم تعد لعضلاتها تلك القوة المعهودة عند القفز، ولم تكن بأحسن حال للمقاومة عندما حاصرها العين الحمراء قرب عرين الكلاب البرية، على بعد عدة أميال إلى الجنوب من الكهوف. في العادة كانت ستراوغه، متغلبة

عليه بلا جدال، لتلوذ بحماية كهفنا ذي المدخل الضيق. لكنها لم تستطع الدوران، كانت خاملة للغاية وبطيئة. كان يسبقها في كل مرة حتى تخلت عن محاولة السبق، وكرست طاقتها بالكامل لتظل بعيدة عن قبضته.

لو لم تكن مريضة لكانت مسألة مراوغتها له مسألة بسيطة ببساطة لعب الأطفال، لكنها كانت مريضة، وقد تطلبت مراوغته كل ما فيها من حذر ودهاء. ساعدها أنها لا يزال بوسعها التنقل بين أغصان أرفع من الاغصانِ التي يستطيع هو القفز عليها. كما أن قفزاتها أوسع مدى من قفزاته. زد على ذلكَ أن حكمها على المسافة بين غصن وآخر، حكم دقيق لا خلل فيه، كما أنها مجبولة بفطرتها على التميز بين الأفرع والأغصان القوية وتلك البالية.

كانت مطاردة طويلة لا انتهاء لها. جولة تلو الأخرى، كانا ينطلقان ذهاباً وإياباً في مطاردة طويلة عبر الغابة. كان هناك هياج كبير بين الحشد. رفعوا أصواتهم بهمهمات عالية، ترتفع الأصوات ما إن يبتعد العين الحمراء، ثم تخفت كلما دنا منهم عند المطاردة.

كانوا متفرجين بلا حول ولا قوة. كانت الاناث تستصرخ وترطن، وبينما يضرب الذكور على صدورهم بغضب عاجز. كان ذو الوجه الكبير أشد غضباً من البقية، ورغم أن الجلبة التي يُحدثها كانت تنخفض كلما اقترب العين الحمراء، لكنه لم يكن يبالغ في كتم أنفاسه مثلما فعل البقية.

أما أنا فلم ألعب دور الشجاع. أعرف أنني لست من البطولة في شيء. وما الفائدة التي كنتُ سأجنيها لنفسي من مواجهة العين الحمراء على أي حال؟ لقد كان مسخاً جباراً، متوحشاً إلى أقصى حد، ولا أمل لي في صراع كهذا. كان سيقتلني. دونَ أن يغير مقتلي شيئاً، بل سيبقى الحال على ما هو عليه. وسيكون قد أمسك بالسريعة قبل أن تتمكن من الوصول إلى الكهف. لم تكنْ يبدي حيلة سوى أن أنظر بحنق لا فائدة منه، ثم أبتعد عن طريقه، كاتماً غضبي كلما صار أقرب.

مرت الساعات. وتجاوز الوقت منتصف النهار بكثير، ولا تزال المطاردة مستمرة. كان العين الحمراء عازماً على استنفاد طاقة السريعة، عمد إلى جعلها تهبط لتركض على الأرض. وبعد أن قضت في الركض وقتاً طويلاً بان عليها التعب، ولم تعد قادرة على الاستمرار بالمضي قدماً. حينذاك بدأت في القفز على أدق الفروع، والتي لم يكن بوسعه القفز عليها، حتى تتمكن من التقاط انفاسها. لكن العين الحمراء كان شيطاناً، فعندما لم يتمكن من مجاراتها في القفز، أزاحها من موضعها بهزها بكل قوته وثقله. كان يهز الاغصان ذات اليمين وذات الشمال، حتى أوقعها مثلما يتخلص المرء من ذبابة تعلقت بكرباج. تمكنت في المرة الأولى من إنقاذ نفسها بهبوطها على غصن آخر في أسفل الشجرة. وفي المرة التالية لم تنقذها الأغصان من الأرض فقد انكسرت واسقطتها، لكنها خففت من قوة الارتطام. وفي مرة ثالثة هزها عن الغصن الذي تقف عليه بشكل عنيف جداً، بدا واضحاً أنها ستُطرح أرضاً عبر الفجوة بين شجرتين. وكم كان مدهشاً أنها تمكنت في سقطتها من أن تمسك بغصن فأنقذت نفسها من سقطة محققة. ما كانت تنشد الأمان المؤقت للأفرع الدقيقة للأشجار إلا عندما تضطرها الحاجة لذلك، لكن التعب سيطر عليها ولم يكن عندها وسيلة سوى تلك لتجنب العين الحمراء، لذا صارت تلتجأ إليها مرة تلو الأخرى.

مع ذلك استمرت المطاردة واستمر القوم بالتصايح، يضربون صدورهم ويكشرون عن أسنانهم. ثم حلت النهاية، كان المغيب قد أزف وكانت هي ترتعد وتلهث وتجاهد لالتقاط أنفاسها، وبطريقة يُرثى لها تشبثت بفرع دقيق.

كان الفرع على بعد ثلاثون قدماً عن الأرض ولا حاجز بينهما. قام العين الأحمر بأرجحة الغصن ذهاباً وإياباً وهو يقف على طرفه السميك. صار الغصن بندولاً متأرجحاً، تزداد أرجحته اتساعاً مع ضغطه بكل ثقله على الغصن، وثم ارتد إلى الوراء فجأة، وقبل أن يُكمل الغصن انحنائه إلى الأسفل انفلتت قبضتاها، وصرخت وهي تتقذف باتجاه الأرض.

لكنها عدلت وضعها وهي في الهواء فهبطت على قدميها. في الوضع الطبيعي كان سقوطها على هذهِ الشاكلة سيخفف من قوة ارتطامها بالأرض بقفزة من ساقيها، لكنها كانت مُنهكة، لذا لم تستطع استخدام ساقيها بشكل جيد فلم تحمل إلا نصف الصدمة، وعجزت عن حملها فسقطت على جنبها، لم يؤلمها السقوط، لكنه حجب الهواء عن رئتيها. ورقدت عاجزة تصارع لتلقط أنفاسها بصعوبة.

انطلق إليها العين الحمراء ليستولي عليها. أخذ شعرها بين يديه الضخمتين، وزعق وهدر بصيحة انتصار رداً على القوم الذين راقبوه عبر الأشجار. جن جنوني في تلك اللحظة، تركت حذري أدراج الرياح، متناسياً رغبتي بالنفاذ بجلدي.

وبينما كان العين الحمراء يهدر انقضضت عليه من الخلف. كان هجوماً مباغتاً بالمرة، حتى أنني نجحت بطرحه أرضاً. طوقته بذراعي وقدمي وسعيت لإبقائه على وضعه. كان ذلك مستحيلاً إتمامه لو لم يكن يمسك شعر السريعة بيده دون أن يفلته.

أصبح ذو الوجه الكبير حليفاً لي فجأة وقد تشجع بعد أن رأى صنيعي. اندفع لنصرتي، غارزاً أسنانه في ذراع العين الحمراء، وأخذ يخمش ويمزق وجهه. كان ذلك الوقت المثالي لينضم إلينا بقية القوم، كانت فرصة العمر للانتقام من العين الحمراء لكنهم لبثوا بين الأشجار خائفين.

كان من المحتم أن يفوز العين الحمراء في صراعه ضدنا نحن الاثنين. والسبب في كونه لم يُفلح في الإجهاز علينا على الفور لأن السريعة كانت تقيد حركته. فقد استعادت أنفاسها وبدأت في المقاومة، لم يكن ليفلت شعرها من قبضته، وهذا ما تسبب في تكبيل يديه. قبض على ذراعي بقوة وكانت تلك بداية النهاية بالنسبة لي. بدأ بسحبي صوبه حتى يغرس أسنانه في عنقي. كان فمه مفتوحاً وهو يبتسم بخبث. لم يكد يستخدم شيئاً من قوته، ومع ذلك فقد تمكن في تلك اللحظة من خلع كتفي مسبباً لي ألماً سيرافقني لباقي حياتي.

وفي تلك اللحظة حدث شيء ما، بلا سابق إنذار، جسد ضخم قفزَ علينا نحن الأربعة بينما نحن مشتبكون في الصراع، افترقنا عن بعضنا بعنف وتدحرجنا على الأرض مرات عدة، وفي تلك اللحظة الصادمة ندت عن ذي الوجه الكبير صرخة رهيبة. لم أعرف ما حدث مع أني شممت رائحة النمر والتقط بصري لمحة خاطفة لفراء مخطط بينما كنت أقفز باتجاه شجرة.

كان ذلك هو السن القاطع العجوز وقد أخرجته الجلبة من عرينه، تسلل إلينا دون أن ننتبه. قفزت السريعة إلى شجرة قريبة وانضممت إليها على الفور. طوقتها بذراعي واحتضنتها بقوة بينما انتحبت وبكت برقة.

ومن الأرض أرتفع صوت زمجرة وتحطيم عظام. صار ذو الوجه الكبير وجبة عشاء للسن القاطع العجوز. من بعيد كان العين الحمراء بعينين محمرة الأجفان يحدق في المشهد الذي خلفه وراءه. ها هنا وحش أشد بطشاً منه. انطلقتُ أنا والسريعة بهدوء عبر الأشجار إلى الكهف، وبينما تجمع القوم من فوق عند كهوفهم، تصايحوا في لوم وتقريع مستهجنين ما حدث، وقاموا برمي الأغصان والأفرع على عدوهم القديم، أما هو فقد أكتفى بهز ذيله وزمجر بهم دون أن يوقفه ذلك عن إكمال طعامه.

وبهذا الحال تم إنقاذنا. كانت مصادفة محضة ـ المصادفة الأسعد. وإلا لكنت متّ هناك في قبضة العين الحمراء، ولم يكن هناك جسر يمر عبر آلاف القرون من الزمن، حتى يصل إلى واحد من ذريتي، ذاك الذي يقرأ الجرائد ويقود السيارة الكهربائية، ويكتب راوياً أحداثاً بعيدة أبعد من زمن الكتابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

حدث ذلك في أوائل فصل الخريف من العام التالي لفشل العين الحمراء في الحصول على السريعة. كان أن اتخذ العين الحمراء زوجة أخرى، ومن الغريب أنها بقيت حية، حتى أنها أنجبت طفلاً بعمر عدة أشهر، وهذا هو الطفل الأول للعين الحمراء، فلم تعشِ زوجاته السابقات طويلاً بما يكفي لينجبن له الأطفال. كانت سنة طيبة للجميع، ظلَ الجو معتدلاً بشكل استثنائي وكان الغذاء وفيراً. أتذكر في تلك السنة نبات اللفت دوناً عن غيره، كما أن محصول البندق كان كثيفاً جداً. وحتى الخوخ البري كان أكبر وأكثر حلاوة عن ذي قبل.

كان باختصار عاماً ذهبياً. ثم حدث ما حدث. كان ذلك صباحاً باكراً وقد أخذنا على حين غرة ونحن لا نزال في كهوفنا. أستيقظنا من نومنا على قساوة الضوء الرمادي، ليواجه أغلبنا الموت. فزعنا من نومنا أنا والسريعة على جلبة من أصوات الذعر العالية والهياج، زحفنا إلى مدخل الكهف وحدقنا إلى الأسفل. كان الفضاء المفتوح يغص بأفواج من قوم النار. كانت صرخاتهم وصياحهم تزيد من الجلبة، إلا أنهم كانوا يتصرفون وفقاً لنظام وخطة أما نحن فلم يكن لدينا شيء. حارب كلّ فرد منا وتصرف من أجل أن ينجو بنفسه، ولم يدرك كائن ما كان منا مدى الكارثة التي حلت بنا.

في الوقت الذي وصلنا فيه لرمي الحجارة كان قوم النار قد تجمعوا بكثافة عند قاعدة المنحدر. لا بد أن أول وجبة من قذائفنا قد حطمت بعض الرؤوس فعندما تراجعوا من قاعدة المنحدر كان ثلاثة منهم قد سقطوا على الأرض. كان اولئك الجرحى يتخبطون ويتلوون من الألم، حاول أحدهم الزحف بعيداً. لكننا ثبتناه في مكانه. كنا نهدر بغضب في حينها، ونمطر الحجارة على الرجال الثلاثة في الأسفل. حاول بضعة رجال من قوم النار أن ينقذوهم ويسحبوهم بعيداً إلى مأمن منا. لكن حجارتنا أعادت رجال الإنقاذ إلى حيث مكانهم.

أما الآن فقد أستبد الغضب بقوم النار، لكنهم صاروا حذرين، وعلى الرغم من صيحاتهم الغاضبة فقد أبقوا على مسافة أمان بيننا وبينهم وأطلقوا السهام لتطير باتجاهنا. وقد وضع هذا حداً لرمينا الحجارة. وبحلول ذلك الوقت كان نصف دزينة منا قد قتلوا وجُرح آخرون. تراجع البقية داخل الكهوف. لم أكن وأنا في مدخل كهفي الضيق بعيداً عن مرمى سهامهم. ولكن المسافة كانت كبيرة بما يكفي لتُبطل فعالية السهام، ولم يضيع قوم النار الكثير من سهامهم بالتصويب نحوي. كان الفضول يدفعني، أردتُ أن أرى، بينما بقيت السريعة داخل الكهف لا تبرح مكانها، ترتعد من الخوف وتبكي بصوت خافت لأنني لم أشأ الدخول بل ربضت عند مدخل الكهف وراقبت ما جرى.

والآن صار القتال متقطعاً، وقد وصل إلى ما يشبه الجدار المغلق. كنا نعتصم من سهامهم بكهوفنا، وكان السؤال الذي واجه قوم النار هو كيفية إخراجنا. لم يجرؤا على اللحاق بنا، ونحن عموماً لم نكن لنكشف أنفسنا لنصير في مرمى سهامهم. بين الفينة والفينة كان واحد من قوم النار يقترب من قاعدة المنحدر، فيندفع واحد من القوم أو أكثر لرشقه بالحجارة، وفي مقابل ذلك كان يتم تغريمه بنصف دزينة من

الأسهم. استمرت هذهِ الحيلة لبعض الوقت لكن القوم عرفوها وما عاد التغرير بهم نافعاً، لم يكن القوم راغبين بكشف أنفسهم آخر الأمر. حتى توقف القتال نهائياً.

من بين قوم النار كان بوسعي رؤية الصياد العجوز المتغضن كان ذلك الضئيل يوجه كل شيء. كانوا يطيعونه، ويتحركون هنا وهناك وفق أوامره، ذهب بعضهم إلى الغابة وعادوا بحمولة من الأخشاب الجافة، وأكوام من الأوراق والعشب اليابس. أقترب قوم النار من بعضهم البعض. بينما وقف أغلبهم وقد أشرعوا القسي والسهام متأهبين للرمي على أيما فرد منا يكشف نفسه لهم، قامت جماعة من قوم النار بتكويم العشب الجاف والأخشاب قرب مداخل الطبقة السفلى من الكهوف. ومن تلك الأكوام استحضروا الوحش الذي نخشاه ـ النار، في البدء ارتفعت سحب من الدخان وتصاعدت أعلى المنحدر. ثم استطعت رؤية اللهب وألسنته الحمراء تنطلق عبر الاخشاب مثل ألسن أفاعٍ صغيرة. وصار الدخان أكثف فأكثف، لم يمر وقت طويل حتى غلف المنحدر بالكامل. لكني كنت في منأى عنه وأنا في أعلى المنحدر، فلم يزعجني كثيراً، مع انه يلسع عيني فأفركها بمفاصل أصابعي.

كان نخع العظام العجوز أول من أخرجه الدخان من كهفه. هبت نسمة من هواء خفيف وأزاحت الدخان لبعض الوقت، فاستطعت الرؤية بوضوح. اندفع عبر الدخان وخطا على الفحم المتوهج فصرخ من الألم الذي باغته، حاول التسلق إلى أعلى المنحدر مجدداً إلا أنهم أمطروه بوابل من السهام. توقف عند الحافة قابضاً على نتوء حجري ليتشبث به، كان يلهث ويسعل ويهز رأسه وهو يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ودزينة من السهام ذات النهايات الريشية تتغرس في جسده بارزة للعيان. لقد كان رجلاً عجوز، راغباً عن الموت. زاد تأرجحه أكثر فأكثر وتخاذلت ركبتاه عن حمله وكان ينوح في ترنحه بطريقة تبعث على الأسى الشديد. تراخت قبضتاه عن النتوء وسقط سقطة عظيمة بعيداً عن الجرف. لابد أن عظامه البالية قد تحطمت بصورة مُحزنة. كان يتأوه وهو يجاهد بضعف للوقوف مرة أخرى، لكن رجلاً من قوم النار اندفع باتجاهه وحطم دماغه بهراوة حتى سحقه.

وما حدث مع نخع العظام العجوز حدث للكثير من قومي، كانوا غير قادرين على تحمل الاختناق بالدخان، هرعوا خارج كهوفهم ليسقطوا من أثر السهام. القليل من النساء والأطفال لبثوا في كهوفهم ليواجهوا الاختناق حتى الموت، ولكن أغلبهم لقوا حتفهم خارج الكهوف.

عندما تمكن قوم النار من تفريغ الطبقة الأولى من الكهوف على هذهِ الشاكلة، بدأوا بإعداد العدة لتكرار العملية ذاتها على الطبقة الثانية من الكهوف. وفي ذلك الوقت وبينما كانوا يتسلقون المنحدر بحمولتهم من الأعشاب اليابسة والأخشاب، تمكن العين الحمراء تتبعه زوجته وطفلها يتمسك بها بقوة من القيام برحلة ناجحة للهرب من أعلى المنحدر. لابد أن قوم النار توقعوا أننا سنظل في كهوفنا في الفترة بين عمليات الإخلاء الإجباري بالدخان وبين إشعال النار من جديد؛ لذا لم يكونوا على استعداد لما حدث، ولم تكن سهامهم قد بدأت بالطيران حتى صار العين الحمراء وزوجته بعيداً في أعلى المنحدر. عندما وصل إلى القمة، التفت حوله ونظر إليهم في الأسفل، هدر وضربه صدره، صوبوا قسيهم باتجاهه وأطلقوا السهام، وعلى الرغم من كونه لم يمس بسوء فقد أسرع في الهرب.

راقبت عملية إخلاء الطبقة الثالثة بالدخان، ثم الطبقة رابعة. قلة من القوم من تمكنوا من الهرب من أعلى المنحدر، سقط أغلبهم بعد أن صوبت السهام عليهم مباشرة وهم يحاولون التسلق. أتذكر كيف وصل ذا الشفة الكبيرة إلى مدخل كهفي، كان يبكي بحرارة، وقد اخترق صدره سهم كانت نهاية السهم المُريشة تبرز من ظهره، بينما الرأس العظمي للسهم قد خرج من الجهة الثانية في منتصف الصدر، وقد أصابه السهم بينما كان يتسلق لينجو بنفسه. سقط عند حافة كهفي نازفاً من فمه بغزارة.

وفي ذلك الوقت بالذات بدأت الطبقات العلوية تفرغ من تلقاء نفسها. أسرع كلّ أعضاء القبيلة ممن لم يخرجوا من الدخان وتسلقوا المنحدر في الوقت ذاته، هذا ما أنقذ العديدين اذ لم يتمكن قوم النار من تصويب السهام بالسرعة الكافية. غاص الجو بالسهام، وكانوا مستمرين بالتصويب على القوم المنكوبين ممن سقطوا في تسلقهم بعد أن أصابتهم السهام، إلا أن فئة قليلة منهم تمكنوا من الوصول إلى القمة فعلاً وهربوا.

والآن صار الدافع للهرب أقوى من فضولي. توقفت السهام عن تحليقها، وبدا أن القوم قد ذهبوا حتى آخرهم، وإن كان من المحتمل أن يكون هناك قلة لا زالوا يختبئون في الكهوف العليا. بدأنا أنا والسريعة في التدافع على المنحدر العلوي. وعند رؤيتنا ندت صيحة عظيمة من قوم النار، لم يكن هذا بسببي ولكن بسبب السريعة. كانوا يثرثرون بحماس ويشيرون إليها من شخص إلى آخر. لم يحاولوا التصويب عليها. لم يُطلق أي سهم صوبها. أخذوا يدعونها إليهم بهدوء وطيبة. توقفت ودققت النظر إلى الأسفل. كانت خائفة وتنتحب وهي تحثني على إكمال المسير. وهكذا وصلنا إلى قمة المنحدر وفررنا صوب الأشجار.

هذا الحدث كثيراً ما آثار في الدهشة والاستغراب. ماذا لو كانت السريعة من قومهم بالفعل، لا بد أنها فُقدت منذ ومن بعيد، وكانت هي أصغر من تذكر ما حدث معها، وإلا لما كانت خائفة منهم. ومن جهة أخرى، ربما تكون منهم بالفعل، إلا أنها لم تظل عنهم، ربما تكون قد ولدت في الغابة البرية بعيداً جداً عنهم، قد يكون والدها رجلاً من قوم النار ثم نأى عنهم، أما أمها فقد تكون واحدة من نوعي، واحدة من القوم. لكن من يستطيع الحكم على ذلك؟ تلك الأشياء كانت تفوق إدراكي، وبدا أن السريعة لم تعرف عنهم أكثر من معرفتي بهم.

عشنا يوماً من الرعب، فرَّ معظم الناجين إلى مستنقع التوت البري ولجأوا إلى الغابة التي تجاوره. استمرت غارات قوم النار طوال اليوم وقد غزوا الغابة في أثرنا، كانوا يقتلوننا أينما وجدونا. لا بد أنها خطة مدروسة بإتقان. بما أن أعدادهم كانت تزيد وحاجاتهم تزيد على طاقة ما توفره أراضيهم فقد قرروا أن يقوموا بغزو مناطقنا، عفوا فتحها! لم تكن عندنا أدنى فرصة للوقوف بوجههم. لقد كانت مذبحة، مذبحة عشوائية لا تفضيل فيها، فقد ذبحوا الجميع ولم يعتقوا أحداً، قتلوا الكبار والصغار، واستولوا بشكل فعال على راضي تواجدنا.

كانت تلك أشبه بنهاية العالم بالنسبة لنا. هربنا إلى الأشجار كآخر ملاذ لنا، ولكن هذا الهرب سهل عليهم ملاحقتنا وقتلنا، عائلة تلو العائلة، شهدنا الكثير من الأهوال في

ذلك اليوم، كما أنني كنت راغبا في رؤية ما حدث. لم نبق أنا والسريعة على شجرة واحدة لوقت طويل البتة، وهكذا نجونا من القبض علينا.

لكن لم يكن ثمة ملجأ للهرب إليه منهم. لقد كان قوم النار في كل مكان، عازمين على مهمتهم في إبادتنا. ما من طريق اتخذناه للهرب إلا ووجدناهم أمامنا، لذا شهدنا على الكثير مما اقترفته أيديهم من مجازر.

لم أعرف ما كان من أمر أمي، لكنني رأيت الثرثار يصاب بسهم ويسقط من بيت الشجرة القديم. وأخجل من القول إنني قفزت فرحاً عند رؤية هذا المشهد. وقبل أن أترك هذا الجزء من روايتي، لا بد أن أذكر ما حدث مع العين الحمراء. أمسكَ به هو وزوجته على شجرة أسفل مستنقع التوت البري. توقفنا عن هربنا أنا والسريعة لبعض الوقت للنظر في ما يحدث معهم، لقد كان قوم النار منهمكين في عملهم غاية الانهماك فلم يلاحظوا وجودنا. علاوة على ذلك فقد كانت الأحراش التي اختبأنا بينها ستاراً جيداً بيننا وبينهم.

كان عشرة صيادين بعدتهم وعددهم يقفون تحت تلك الشجرة، ويصوبون السهام باتجاهها. وقد ظلوا يلتقطون السهام التي ترتد إلى الأرض. لم يكن بوسعي رؤية العين الحمراء، لكن كان بوسعي سماعه وهو يهدر من مكان ما في الشجرة. بعد ذلك بدأت صيحاته تخفت، لا بد أن يكون قد تسلل إلى تجويف في جذع الشجرة. أما زوجته فلم يحالفها الحظ للفوز بمثل هذا الملجأ. أصابها سهم واسقطها إلى الأرض. لا بد أن أصابتها كانت بالغة، ذلك أنها لم تبذل أدنى جهد للفرار منهم. واكتفت بأن تكورت حول طفلها تريد حمايته لا غير (والذي كان يتمسك بها بقوة)، أطلقت أصوات وإشارات توسل لقوم النار. وقد اجتمعوا حولها وضحكوا منها ـ تماماً كما ضحكنا أنا ومسترخي الأذن من رجل الشجرة العجوز، وتماماً مثلما لكزناه بالأغصان وبالعصي، كذلك فعل رجال قوم النار بزوجة العين الحمراء. لقد لكزوها بنهايات أقواسهم، وضربوها على أضلاعها. لكنها لم تمنحهم الرضا والمتعة. فلم تكن تقاتل، ولم يبد عليها الغضب حتى، استمرت بالتكور حول صغيرها وتابعت التوسل بهم. أقترب منها أحد الرجال وهو يحمل هراوة في يده. رأت مقدمه وفهمت ما كان على وشك أن يحدث، ومع هذا فلم يبدر منها صوت إلا صيحات التوسل، حتى بدأت الضربات تهوي على رأسها.

لقد كان العين الحمراء في تجويف الشجرة في مأمن من سهامهم. بينما وقفوا هم سوياً وتبادلوا النقاش لبرهة من الزمن، ثم أن واحداً منهم تسلق إلى الشجرة، ليس بوسعي معرفة ما حدث هناك بالضبط، لكنني سمعت الرجل يصيح ورأيت الهرج بين أولئك الذين بقوا تحت الشجرة. بعد بضعة دقائق كان جسده محطماً على الأرض. ولم تصدر منه نأمة، بقي في مكانه دون حراك. صعدوه بنظرهم وانحنوا إليه يريدون رفع رأسه، لكن الرأس سقطت مجدداً في خدر ما إن أفلتوها من أيديهم. لقد دافع العين الحمراء عن نفسه.

أستبد بالصيادين غضب شديد، كان ثمة مدخل إلى جوف الشجرة بالقرب من الأرض. فجمعوا الخشب الجاف والأعشاب وأشعلوا فيها النار. انتظرنا أنا والسريعة نطوق بعضنا البعض ولبثنا في مكاننا بين الأحراش نراقب ما يجري، كانوا أحياناً يعمدون لرمي الأغصان التي لا تزال غضة وتحمل أوراقاً خضراء كثيرة إلى قلب النار، وعندها يصير الدخان كثيفاً للغاية.

رأيناهم يتراجعون عن الشجرة فجأة. لكنهم لم يكونوا بالسرعة الكافية فإذا بجسد العين الحمراء يحط في وسطهم بسرعة. كان في نوبة هياج مُرعبة، يلوح بيديه الطويلتين يميناً ويساراً محطماً كل ما يعترض سبيله. سحب وجه أحدهم، لقد انتزع وجهه حرفياً بأصابعه القوية وعضلاته الهائلة تلك. وعض آخر من رقبته ممزقاً إياها. تراجع البقية وهم يتصايحون بصيحاتهم الوحشية. ثم عادوا باتجاهه مسرعين، فالتقط هو عصا وبدأ بتحطيم الرؤوس كما لو كانت قشرة بيض. لقد كان أكبر من قدرتهم، وكانوا مجبرين على التراجع مجدداً. كانت تلك هي فرصته، فأدار لهم ظهره وهرب. وهو يصيح حانقاً. انطلقت في إثره بضعة سهام لكنه قفز واختفى.

تسللنا أنا والسريعة هاربين بأقصى سرعتنا. وإذا بنا نقع ضحية لغارة جماعة أخرى من قوم النار. لاحقونا إلى مستنقع التوت البري. لكننا كنا نعرف ممرات الأشجار عبر الأراضي الموحلة أفضل منهم، حتى وصلنا حيث عجزوا عن ملاحقتنا وهم يطاردوننا راكضين. وهكذا فررنا من قبضتهم. خرجنا إلى الطرف الآخر من المستنقع حتى وصلنا إلى ممر ضيق للغابة التي تفصل مستنقع التوت البري عن المستنقع الكبير الممتد إلى جهة الغرب. وهناك التقينا بمسترخي الأذن. لا يمكنني تخيل كيف نجا من هجوم قوم النار، إلا في حال أن يكون قد قضى ليلته خارج الكهف.

كان يُمكن لنا أن نبني أعشاشاً في الأشجار ونستقر هنا في هذا الشريط الضيق من الغابة؛ لكن قوم النار كانوا قد عقدوا العزم على إبادتنا حتى آخر فرد. في الظهيرة جاء ذو الوجه المشعر زوجته هاربين من بين الأشجار من جهة الشرق. مرا بنا، وذهبا بصمت. هربا بسرعة، وقد لاحت على وجهيهما علائم الخطر القادم، وسمعنا صيحات الصيادين وهياجهم واستغاثة واحد من قومنا قادمة إلينا من الطريق الذي جاءوا منه. لقد وجد قوم النار طريقاً لعبور المستنقع.

أنا والسريعة ومسترخي الأذن سرنا على آثار الوجه المشعر وزوجته. وعندما قادتنا خطواتنا إلى مدخل المستنقع الكبير، توقفنا. لم تكن لنا خبرة بطرقاته. فقد كان خارج نطاقنا، ولطالما تجنبه القوم. حتى أن أي فرد منا لم يدخله من قبل، فهو يمثل في عقولنا الغموض والخوف. المجهول الرهيب. توقفنا على حافته مثلما قلت. كنا خائفين. كان صرخات قوم النار تقترب أكثر. نظرنا إلى بعضنا البعض. ركض ذو الوجه المشعر فوق الأرض الموحلة غير المستقرة، حتى وجد بقعة أكثر صلابة يغطيها العشب على بعد اثنتي عشر ياردة منا. لم تتبعه زوجته. حاولت أن تفعل. لكنها تراجعت خائفة من عدم ثبات الوحل تحت قدميها، وتكورت على نفسها فوق الأرض.

لم تنتظرني السريعة. ولم تتوقف حتى تجاوزت ذا الوجه المشعر بمائة ياردة ووجدت مخبأ أكبر بكثير. في الوقت الذي لحقنا بها أنا ومسترخي الأذن بدأ رجال قوم النار يظهرون من بين الأشجار. ذعراً منهم انطلقت زوجة ذي الوجه المشعر في أثرنا. لكنها ركضت على غير هدى ودون أن تتوخى حذرها، فانزلقت وغاصت في حفرة وسط الطين. التفتنا نرى ما سيحدث. ورأينهم يصوبون باتجاهها بينما كانت هي تغرق في الطين. ثم بدأت السهام تصل إلينا، تبعنا ذو الوجه المشعر،

وتمسكنا ببعضنا البعض نحن الأربعة ومضينا دون أن ندري إلى أين السبيل، مع هذا استمر توغلنا أعمق فأعمق في داخل المستنقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

ذكرياتي عن تجوالنا في المستنقع العظيم تفتقر للوضوح، لا أدري كم من الوقت لبثنا هائمين فيه. عندما أجهد نفسي كي أتذكر أجد ثلة من الانطباعات التي لا ترابط بينها مع فقدان لقيمة الوقت. لا علم لي بالوقت الذي قضيناه في تلك الأرض الشاسعة. لكن لابد أن ذلك أستمر لأسابيع بطولها. تتخذ ذكرياتي عما حدث معنا شكل الكابوس دائماً. أدرك أنني عشت دهوراً طوال وأزماناً لا حصر لها يطاردني ويضطهدني خوف متغير الهيئات. أتذكر التجوال، تجوال بلا نهاية عبر برية مظلمة ولزجة مشبعة بالمياه. حيث تترصدنا وتهجم علينا ثعابين سامة وحيوانات شتى تزأر حولنا. والأرض الموحلة ترتج تحت أقدامنا ويلتصق الطمي بأعقابنا معرقلاً المسير.

أعرف اننا انحرفنا عن مسارنا مرات لا حصر لها بسبب الأنهر الصغيرة والبحيرات والبحار الضحلة. وهناك العواصف أيضاً وارتفاع مستوى الماء إلى حد كبير فوق الأراضي الواطئة. وكانت هناك فترات من الجوع والبؤس عندما يتحكم علينا أن نُضحي أسرى على الأشجار لأيام وأيام بسبب موجة من موجات الفيضانات العابرة.

تتبدى في ذهني صورة واحدة واضحة بشكل قوي عندي. في تلك الصورة أرى أشجار ضخمة تُحيط بنا ومن أفرعها تتدلى خيوط وعرائش رمادية اللون من الطحالب. بينما تزحف نباتات متسلقة هائلة على جذوعها وتتلوى على طولها مثل أفاع جبارة وتتشابك في الهواء. والوحل يغطي كل شيء حولنا في كل مكان. وحل مشبع بالماء تخرج منه الفقاقيع المحملة بالغازات وتنفجر إلى الأعلى. ومعها تنطلق منا التنهيدات والحسرات من نفوسنا التي تجيش بالحزن. في وسط كل ذلك ثمة دزينة منا. كنا جميعاً هزيلين وبائسين. وقد بدت عظامنا تبرز عبر جلدونا المشدودة بقوة. لم نغن ولم نثرثر ولم نضحك. لم نقم بأي مقالب بالمرة. روحنا النشطة المرحة خيم عليها اليأس. والأصوات التي كانت تصدر منا لم تكن إلا أصوات الشكوى والتبرم. ننظر في وجوه بعضنا البعض ونقترب فيما بيننا. كان ذلك أشبه بلقاء حفنة من الناجين في اليوم التالي عقب انتهاء العالم.

لا صلة لهذهِ الصورة بباقي الأحداث في المستنقع. لا أعرف كيف تسنى لنا أن نجتازه ونمر عبره. لكن في آخر الأمر خرجنا منه، ووجدنا سلسلة من تلال واطئة تنحدر إلى أسفل ضفة النهر. كان نهرنا يخرج مثل خروجنا من المستنقع العظيم. في الضفة الجنوبية حيث شق النهر طريقه عبر التلال وجدنا العديد من الكهوف في التلال ذات الصخور الرملية. وخلف كهوفنا باتجاه الغرب كان المحيط يهدر، وكانت تلك النقطة التي يصب فيها النهر. وها هنا استقر بنا المقام، واتخذنا من الكهوف المجاورة للبحر موضع إقامة جديداً لنا.

لم نكن سوى بضعة أفراد. ومن وقت لآخر وبمرور الايام صار المزيد من القوم يظهرون تباعاً. لقد خلصوا أنفسهم من المستنقع فرادى ومثنى وثلاث. أشبه بالموتى منهم بالأحياء محض هياكل عظمية هائمة. حتى غدونا في آخر المطاف ثلاثين

فردا. ثم لم يأت أحد من المستنقع بعدها، ولم يكن العين الحمراء بيننا. ومن الملاحظ أن ما من طفل نجا من تلك الرحلة المخيفة.

لن استغرق في الكلام عن تفاصيل السكنى بجوار البحر. يكفيني القول إن ذلك لم يكن محل إقامة سعيداً أبداً كان الهواء رطباً وبارداً. وعانينا باستمرار من الزكام والسعال. لم يكن بوسعنا النجاة في بيئة كتلك. صحيح أننا أنجبنا الأطفال، الا أنهم لم يبقوا على قيد الحياة طويلاً وماتوا مبكراً. لقد كانت معدلات الموت بيننا أكبر من معدلات الولادة، وهكذا كان عددنا يضمحل بالتدريج.

ثم إن التغيير الجذري في غذائنا لم يكن في صالحنا. لم نتحصل إلا على القليل من الفواكه والخضار وصرنا من أكلة الأسماك. كان هناك المحار المسمى بلح البحر والقواقع (آذن البحر) والزلفية (محار ملزمي) والمحار الصخري، وسلاطع المحيط الضخمة التي كانت ترمى على السواحل في الجو العاصف. كما عرفنا عدة أنواع من أعشاب البحر ووجدناها صالحة للأكل. لكن هذا التغير الكبير في الغذاء لم يكن في صالحنا إذ سبب لنا متاعب في المعدة ولم يزدد أي منا وزناً. كنا جميعاً هزيلين ونبدو كمصابين بسوء التغذية. وبسبب قوقعة بحرية فقد مسترخي الأذن حياته. أحكمت القوقعة قبضتها على أصابع قدم مسترخي الأذن عندما كان المد منخفضاً ثم جاءت موجة عالية فأغرقته. وجدنا جثته في صباح اليوم التالي، وكان ذلك درس لنا، ولم يحدث بعدها أن جازف أي فرد منا بالإمساك بقوقعة بحرية بعد تلك الحادثة.

استطعنا أنا والسريعة أن ننجب ولداً واحداً، وقد تمكنا على الأقل من تربيته لبضعته سنوات. لكنني واثق أنه لا يمكن أن يكون قد نجا في ظل ذلك المناخ الرهيب. ثم حدث في يوم ما أن ظهر قوم النار مجدداً. جاءوا من النهر هذهِ المرة، ولم يكونوا على متن طوف بدائي بل على متن قارب محفور. كان في القارب ثلاثة منهم، وهم يجذفون وكان أحدهم الصياد الكهل الضئيل، حطوا بقاربهم عند ساحلنا وعرج هو على الرمل وتفحص كهوفنا.

ثم ذهبوا بعيداً في غضون دقائق. إلا أن السريعة كانت خائفة أشد الخوف. كنا كلنا خائفين، لكن ما من أحد كان أشد خوفاً منها. انتحبت وبكت ولم تستطع النوم طوال الليل. وفي الصباح أخذت الطفل بين راعيها وبصرخات حادة وإشارات وأمثلة جعلتني ابدأ معها في ترحال طويل آخر. كان هناك ثمانية من القوم (كل من بقي من الحشد) وقد تركناهم خلفنا في الكهوف. لم يكن في نجاتهم أمل البتة. حتى لو أن قوم النار لم يعاودا الظهور فلا بد أن يكونوا قد هلكوا بعد ذلك بفترة قصيرة. ومرد ذلك إلى المناخ السيء هناك بجوار البحر. لم نكن قوماً جاهزين للحياة على السواحل.

ارتحلنا إلى الجنوب. درنا لأيام حول المستنقع العظيم لكن لم ندخل فيه أبداً. وحدث ذات مرة أن قفلنا عائدين إلى جهة الغرب. عابرين سلسلة من الجبال وهبطنا إلى الساحل، إلا أنه لم يكن مكاناً ملائماً لنا. لم تك ثمة أشجار هناك، مجرد أراض مرتفعة وموج هادر ورياح عالية بدا أنها لا تكف عن الهبوب. انتقلنا عائدين عبر الجبال، مرتحلين شرقاً وجنوباً حتى صرنا قرب المستنقع العظيم مجدداً.

سرعان ما وصلنا إلى الحدود الجنوبية للمستنقع، ومضينا بمسارنا إلى الجنوب والشرق. كانت تلك أرضاً طيبة، فالهواء جاف وقد عدنا إلى الغابة من جديد. فيما بعد عبرنا تلال واطئة الارتفاع ووجدنا أنفسنا في غابة أفضل من سابقتها. وكلما

انطلقنا بعيدا عن الساحل كلما وجدنا الجو يصير أكثر دفئا. ومضينا قدما فقدما حتى وصلنا إلى نهر كبير بدا مألوفاً للسريعة. لا بد أن هذا هو المكان الذي جاءت إليه في السنوات الاربع لغيابها عن القطيع. عبرنا هذا النهر على الألواح. وهبطنا على شاطئ البحر عند منحدر عال. وفي أعلى المنحدر وجدنا منزلنا الجديد وهو كهف من الصعب الوصول إليه، مخفي تماماً عن أي عين تنظر من الأسفل.

هناك القليل مما بوسعي حكايته بعد ذلك. عشنا أنا والسريعة وربينا عائلتنا هنا. وها هنا تنتهي ذكرياتي. لم نقم بأي هجرة أخرى أبداً. ولم أحلم وراء كهفنا العالي الغير قابل للوصول. ولا بد أن يكون هذا هو المكان الذي ولد فيه الطفل الذي ورث مادة أحلامي. التي تبرعمت على وجوه كل انطباعات حياتي. أو حياة السن الكبير بالأحرى، الذي هو ذاتي الأخرى، وليس ذاتي الحقيقية. لكنه حقيقي للغاية حتى أنني غالباً ما أكون غير قادر على التمييز وأنا اتساءل في أي عصر أعيش. اتساءل دائماً عن خط التناسل هذا. أنا الرجل الحديث، أنا بشر بلا شك؛ إلا أن السن الكبير، البدائي لم يكن من البشر. بطريقة ما وبخط مباشر في التناسل، يرتبط هذان الجزءان من شخصيتي المزدوجة. لا أعرف فيما لو كانت القبيلة قبيل انتهائها كانت في طور التحول إلى البشرية؟ وهل أنا وذريتي أكملنا تلك العملية؟ من جهة أخرى، ربما يكون بعض من ذريتي قد ذهبوا إلى قوم النار وصاروا منهم؟ لا أعرف. وما من سبيل لمعرفة ذلك. شيء واحد مؤكد فقط. وهو أن السن الكبير طبع في خبايا دماغ واحد من ذريته كل انطباعاته عن حياته. وطبعها بشكل راسخ للغاية حتى أن تداخل العديد من الأجيال فشل في محوها.

ثمة شيء واحد آخر يجدر بي قوله قبل أن أختتم حديثي. أنه حلم أحلم به كثيراً. وفي نقطة من الزمن لا بد أن الحدث الحقيقي قد حدث خلال فترة عيشي في الأعالي. في الكهف الذي لا وصول إليه. أتذكر أنني تجولت بعيداً في الغابة باتجاه الشرق. وهناك صادفت قبيلة من قوم الأشجار. ربضت بين الأحراش وراقبتهم يلهون. كانوا يقيمون مجلساً للضحك. وهم يتقافزون ويتصايحون بأغان ساذجة.

انخفضت ضوضاؤهم فجأة وكتموا عربدتهم. وانكمشوا في خوف وقد بدا القلق واضحاً في أعينهم التي كانت تبحث عن مكان تتراجع إليه. ثم رأيتُ العين الحمراء يخطو بينهم. جبنوا عنه، كانوا كلهم خائفين، لكنه لم يقم بأي محاولة لأذيتهم. لقد كان واحداً منهم. وعلى قدمين مقوستين بحدة، تدعم نفسها بمفاصلها التي تلامس بها الأرض على الجانبين. مشت امرأة كبيرة في السن من قوم الشجر. زوجته الأخيرة. جلس إلى الأرض في وسط الحلقة. بوسعي رؤيته الآن. بينما أكتب ذلك. يجول بعينيه الملتهبتين بينما يحدق حوله في حلقة من قوم الأشجار وبينما يحدق فيهم كان يحك معدته بقدمه الهائلة وأصابعها الملتوية. انه العين الحمراء. المرتد إلى الأصل.

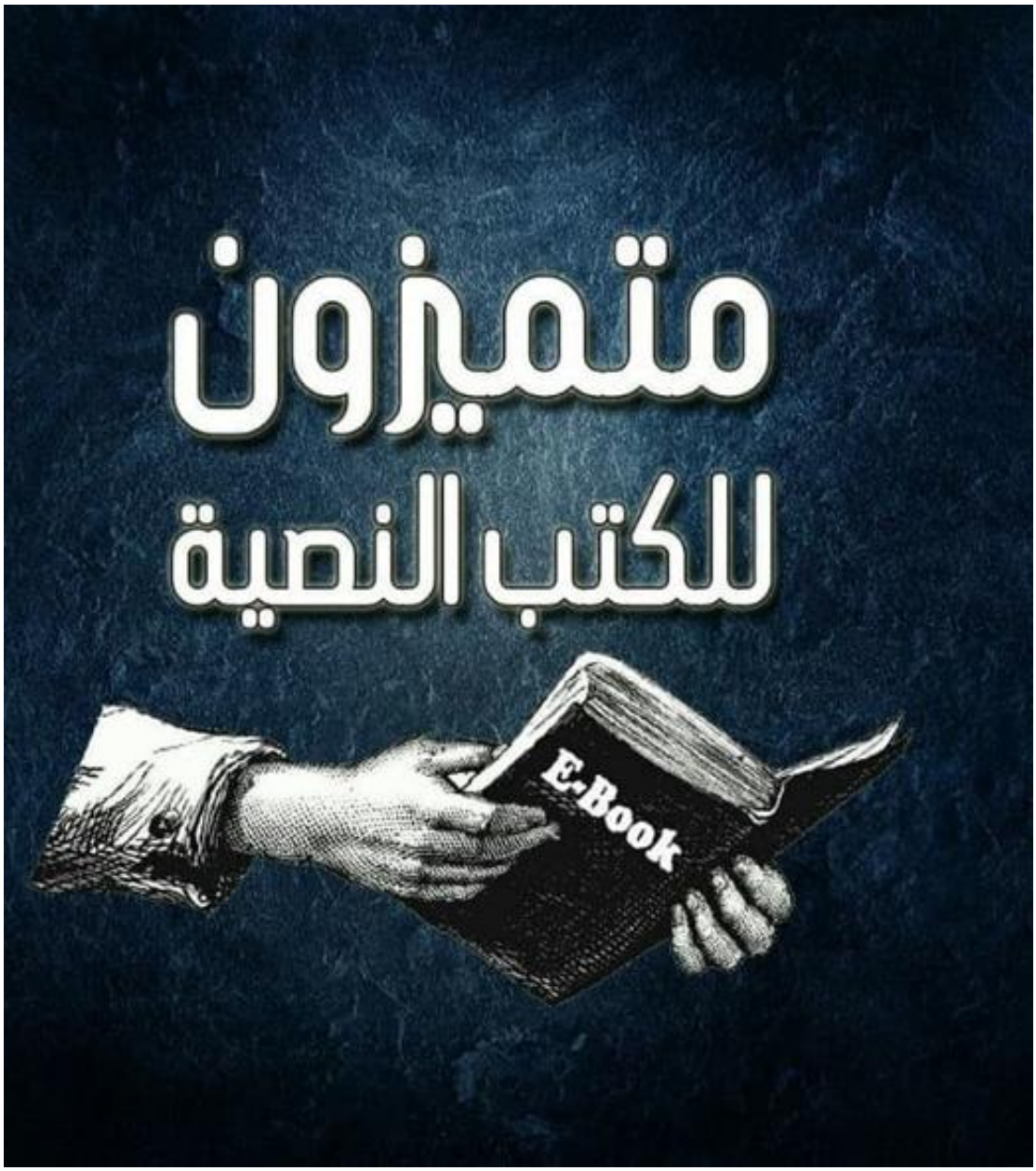
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
عن جاك لندن (المؤلف)..
مقدمة الترجمة العربية
تقديم
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر

Notes

[←1]

(1) منتصف العصر الجليدي Mid–Pleistocene: ويعرف كذلك باسم (البليستوسين الأوسط) و(الأيوني) الفترة الجيولوجية التي تم الانتقال فيها من العصر الحجري الأدنى إلى العصر الحجري الأوسط، وهي الفترة التي ينسب إليها أقدم تواجد للإنسان العاقل Homo sapiens قبل 300 الف سنة مضت.

[←2]

(2) Phantasmagoria: مصطلح غير مُعرب، يمكن أن يعرب بـ«مسرح الأشباح» يتكون من مقطعين من أصل يوناني: الأول يعني الشبح، والمقطع الآخر يعني تجميع. وهو نوع من مسارح الرعب الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر، ويعتمد على عرض مجموعة من الصور المخيفة للأشباح والشياطين على الجدران باستخدام وسائل التكبير كالفوانيس وغيرها، مع وجود مؤثرات كالدخان لزيادة الرهبة في نفوس المتفرجين.

[←3]

(3) وايزمان: هو اوغست وايزمان (1834-1914م) أهم العلماء الذين نظروا للتطور من بعد تشارلز دارون. يشير الروائي هنا إلى نظريته الشهيرة عن البلازما الجرثومية germ plasm theory في العام 1892، وهي النظرية التي تقول إن المعلومات الوراثية التي تنتقل من الآباء إلى سلالتهم يتم تناقلها عبر خط الخلايا الجرثومية فقط (الامشاج المنتجة من خلايا الغدد التناسلية في المبيض والخصيتين) في الكائنات متعددة الخلايا، بينما باقي الخلايا هي خلايا عادية لا تلعب دوراً في التوارث.

[←4]

(4) الثوماسيين: نسبة إلى أتباع نظرية ثوماس، وهي نظرية سايسلوجية تنسب إلى كل من عالمة الاجتماع الأمريكية الرائدة دورثي ثوماس، والعالم ويليام اسحاق ثوماس في كتابهما المشترك (الطفل في امريكا – 1928م) وتم طرح النظرية فيه والتي تنص على أن «ما يعتقد البشر أنه حقيقة، تكون نتائجه حقيقية» وأن الأشخاص يعتمدون في تفسيرهم للمواقف على تجاربهم الخاصة، وبالتالي فإن استنتاجاتهم تكون نتاج لهذهِ التجارب. وأن من يؤمن بالخوارق وبالسحر، أكثر عرضة للتعرض للأذى والمرض نتيجة لتلك الخوارق. يلاحظ أن الكتاب صدر في العام 1928 أي بعد كتابة لندن لروايته ب20 سنة، لذا فإن الاحتمال الأرجح أن يكون لندن يقصد بذلك دراسات اسحاق ثوماس نفسه الشهيرة في حينها للأدب والملاحم، وتفسيره الخاص للخوارق فيها، قبل أن يطور النظرية.

[←5]

(5) قرد الاورنجتان: نوع ضخم من القردة العليا وموطنها في أندنوسيا. يعني اسمها (إنسان الغابة) لتشابه ملامحه وحركاته وهيئته مع الإنسان. من أسمائه الأخرى السعلاة.

[←6]

(6) نصف هيلسون هي وضعية مصارعة يتم فيها وضع إحدى الذراعين خلف ذراع الخصم لتقيدها، ويتم إحكام الذراع الأخرى على رقبة الخصم. وهي أسهل حركات المصارعة وأكثرها فعالية.

[←7]

(7) دامون وبيثياس: قصة من التراث الأغريقي تمثل مدى قوة الصداقة، دامون وبيثاس من أتباع الفيلسوف الاغريقي فيثاغورس، حلا على مدينة سرقوسة في صقلية، وهناك حُكم على بيثياس بالإعدام بتهمة التامر على الحاكم، فطلب مهلة لتصفية أموره وتوديع عائلته قبل أن يُعدم، فرفض الحاكم عندها تبرع صديقه دامون أن يتم سجنه كرهينة حتى يرجع، وأن يُعدم بدلاً عنه لو تخلف عن الرجوع، لثقته بنزاهة صاحبه، وعند نهاية النهار وبينما كان الحاكم قد يأس من وصوله وامر بإعدام دامون عاد بيثياس، وقد أثار اخلاصمها إعجاب الحاكم فحرر كليهما. وصار دامون وبيثاس رمزاً للصداقة حتى اليوم.

[←8]

(8) الأب داميان: كاهن بلجيكي، أشتهر لعمله في الحجر الصحي مع مرضى الجذام في هاواي، مضحياً بصحته، وكان يعيش مع المرضى ويشاركهم طعامهم وشرابهم، ليخفف عنهم مقدماً لهم الدعم النفسي.

[←9]

(9) سمك المينوه: هو أسم شائع لعدة أنواع من الأسماك الصغيرة التي تستوطن المياه العذبة.

[←10]

(10) المقصود هنا القصة التوراتية في سفر التكوين عن أن الناس كانت لهم لغة واحدة، حتى بنوا برج بابل وهم يحاولون أن يصلوا إلى السماء، فبلبل الرب السنتهم وفرقها حتى لا يجتمع أمرهم مرة أخرى، لعنة من الله على تطاولهم عليه.

[←11]

(11) اللحية الزرقاء: قصة من الفلكلور الفرنسي عن رجل غني بلحية زرقاء، كان في كل مرة يتزوج ويشترط على زوجته أن لا تفتح غرفة واحدة في منزله، ودائماً ما يقود الفضول الزوجة لفتح ذلك الباب، فتجد زوجاته السابقات مقتولات ومعلقات في الغرفة، فيقتلها الزوج ويعلقها هي الأخرى، حتى تمكنت زوجته الأخيرة من قتله بمساعدة أخوتها، وهذهِ القصة موجودة في الفلكور العراقي كذلك، وقد سمعتها مع تعديل بسيط من الكبار في طفولتي.

[←12]

(12) الزرياب الأزرق القيق الأزرق أو أبو الزريق طائر أزرق اللون من رتبة العصفوريات يكثر في قارة أمريكا الشمالية ويتميز بصوته الحاد وهو صوت قريب من صوت الغربان، وهي طيور صاخبة وعدائية.